السلطة الوطنية الفلسطينية
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد

صلى الله عليه وسلم

(الجزء الثالث)

القدس
1431هـ- 2010 م

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

هدية

سنة 1431هـ - 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله حمد الشاكرين المنيبين، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم، محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فيسر دار الإفتاء الفلسطينية أن تصدر الجزء الثالث من كتاب (الرسول الأسوة محمد ﷺ) الذي صدر جزؤه الأول في أوائل العام 1429هـ -2008م، وجزؤه الثاني في أوائل العام المنصرم 1430هـ - 2009م.

ونأمل أن نكون قد وفقنا في عرض مادة هذا الإصدار بطريقة ميسرة تتيح للقارئ أن يستقي منه ما يفيده، وتساهم في نشر الوعي الإسلامي الصحيح.

كما انتهز مناسبة صدور الجزء الثالث من هذا الكتاب لأقدم جزيل شكري لكل من بذل جهداً فيه، سائلاً المولى ﷻ أن يتقبل منا ومنهم صالح العمل، كما أسأله ﷻ أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منارة علم وخير وهداية وصلاح للمسلمين ، إنه الهادي الموفق إلى سبيل الرشاد.

هذا جهد المقل؛ فإن أصبنا فيه فبتوفيق من الله،وإن قصرنا فمن عند أنفسنا والله المستعان .

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1431هـ / 2010م

الفصل الأول

الإيمان وفتنة الدنيا		
1	يبايع أصحابه على الإيمان والطاعة	5
2	يبين دلائل الإيمان	9
3	يبين لنا طريق الفوز بالجنة	13
4	يحذر من فتن الدنيا	17
5	ينهى عن تفضيله على الأنبياء	21

رُوي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال:" كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ: فَقَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ - وفي رواية: وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَعُوقِبَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ"[1].

إنه هدي نبوي شريف جامع، وبيعة رابحة، يعقدها رسول الله ﷺ مع أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وهم الحريصون على اتباع هدي نبيهم عليه السلام، والاستجابة لأمره، والالتزام بهديه وسنته، لأنهم على يقين بأنه النبي الأمين الذي يوجههم إلى خيري الدنيا والآخرة، وأنه الرسول الكريم الذي يربي أصحابه على عقيدة الإيمان والتوحيد، واجتناب كل ما من شأنه أن يخرمها أو يخدشها من الآثام والمنكرات والموبقات.

فهذه بيعة أول شروطها، وأهم أركانها توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن الشرك، وهذه دعوة الأنبياء والرسل جميعاً، فقد بعثهم الله تعالى بهذه الرسالة، وحملهم هذه الأمانة، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

فما من نبي ولا رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الله، ونبذ الشرك بكل ألوانه وأشكاله، فلا تستقيم العقيدة، ولا ينهض أتباعها، إلا إذا قامت على توحيد الله تعالى، ونفي كل مظاهر الشرك الخفي والجلي.

1- صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.

ولقد جاءت الآيات القرآنية تؤكد هذا الوضوح في العقيدة، وتدعو إليه، منها قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾[1] ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[2] ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3]

وكثيرة هي الآيات الكريمة التي تنص على نبذ الشرك وتوحيد الله تعالى، إذ إن مبنى العقيدة بأسرها يقوم على هذه الركيزة؛ وهي التوحيد الخالص لله تعالى، ونبذ كل شرك يخالطها.

وتقتضي عقيدة التوحيد أن يبتعد المؤمن عن سائر المنكرات والمعاصي والموبقات، فمن يلتزم بالإيمان بالله وحده لا شريك له يأتي بلوازم هذا الإيمان من أبواب الطاعة، والبعد عن مظاهر المعصية، أو ما يقرب إليها.

وقد نبه رسول الله ﷺ في هذه البيعة بعد الإيمان والتوحيد، إلى وجوب مجانبة ما من شأنه أن يؤثر على هذا الإيمان، أو يوقع الإنسان في أحابيل المعاصي، التي تنحرف به عن جادة الصواب، وعن سبيل الخير والهدى، ومن هذه المعاصي؛ السرقة، وهي جريمة عاقب الشارع عليها بحد السرقة، فقال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4] والسرقة تدل على خسة في الطبع، وسوء في الخلق، عدا عن كونها اعتداءً على أموال الآخرين وحقوقهم، وأخذاً للشيء من غير وجه حق، وأما الزنى فهو فاحشة ومقت وساء سبيلاً، واعتداء صارخ على الأعراض والأنساب والأخلاق، يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾[5] ومدح الله تعالى عباده المؤمنين، ووصفهم بأنهم لا يزنون، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾[6] ورحم الله الشافعي إذ قال:

1- النساء:36.
2- الإسراء 23.
3- لقمان:13.
4- المائدة :38.
5- الإسراء:32.
6- الفرقان:68.

عفوا تعف نساؤكم في المحرم | وتجنبوا مــا لا يليــق بمســلم
إن الزنى ديــن فإن أقرضته | كان الوفاء بأهل بيتك فاعــلم

وقد عد رسول الله ﷺ جريمة الزنى من الموبقات، ومن أسباب ابتلاء من تشيعُ فيهم بالأمراض والأسقام، التي لم تكن في أسلافهم، يقول عليه السلام: "... لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ..."[1].

فانظر أخي المسلم ـ هداك الله إلى طريق الإيمان والحق ـ ماذا فعلت الإباحة الجنسية في المجتمعات والشعوب التي أطلقت العنان للشهوات بلا قيود ولا حدود، كيف ابتلاها الله بالأمراض الجنسية؛ كالزهري والسفلس، ومرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) وغيرها من الأمراض الفتاكة، نسأل الله تعالى الوقاية والحماية بحوله وقوته وببركة عقيدة الإيمان والتوحيد التي نحملها، وندين لله تعالى بها، ونسأله أن يحفظ مجتمعات المسلمين من هذه الفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

ثم يشير رسول الله ﷺ إلى جريمة أخرى؛ وهي قتل النفس والأولاد، وقد كانت جريمة وأد البنات منتشرة بين العرب في الجاهلية، فجاء النهي عن هذه الجريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾[2] وعن الموؤودة قال تعالى:

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[3]

كما بين الله تعالى أن جريمة القتل، وبخاصة قتل العمد، تستحق عقوبة القصاص في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[4]

1ـ سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات.
2ـ الإسراء:31.
3ـ التكوير:8ـ9.
4ـ النساء:93.

ونهى رسول الله ﷺ عن البهتان في النسب، فمن أقبح وجوه الكذب، أن ينسب الرجل أو تنسب المرأة ولد الزنى إلى غير أبيه.

ثم يخبر رسول الله ﷺ أن جامع هذه البيعة، وصمام أمانها، هو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ "وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ" إذ المعروف جامع لكل أبواب الخير، ومغلق لأبواب المنكر الذي هو عنوان لكل أعمال الشر.

وفي ختام هذه البيعة والمعاقدة على الإيمان والطاعة، يخبرنا رسول الله ﷺ أن من وفى بأركان هذه البيعة، كان له الأجر من الله تعالى، ومن أصاب شيئاً من المنكرات أو المعاصي، فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، وإن ستره الله فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، وفي هذا المجال لا بد من تذكير المسلمين بالتوبة إلى الله تعالى، وقد أمرنا الله بها بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2] وباب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر، لقوله عليه السلام: "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ"[3].

كما أن عفو الله تعالى شامل لجميع الذنوب إلا الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[4].

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للالتزام بأركان البيعة مع الله تعالى ورسوله، حتى نفوز برضوانه، وبحسن الاقتداء برسولنا الأسوة صلى الله عليه وآله وسلم، ورضي الله عن أصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- النور:31.

2- الزمر:53.

3- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، باقي المسند السابق.

4- النساء: 48.

لما كان الإيمان من أعمال القلب، إذ القلب مكان النيات الصادقة والإخلاص لله تعالى في القول والعمل، ولا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى، الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان، فهو جل شأنه عالم الغيب والشهادة، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة من خردل، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وقد عرّف العلماء الإيمان: بأنه ما وقر في القلب، وصدقته الجوارح بالقول والعمل.

إذا كان القلب كذلك فقد أشار النبي ﷺ إلى علامات ودلائل، إذا ظهرت كلها أو إحداها في تصرفات المسلم دلت على أن الإيمان قد تمكن في قلبه ونفسه، فالرسول ﷺ يقول:" ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[1] .

فهذه دلائل وعلامات تميز المؤمن، وتحكم أعماله، وتوجه نواياه، خالصة لله تعالى، ليعيش المؤمن في روضة الإيمان، متمتعاً بحلاوتها، ومتذوقاً لرحيقها في رحاب إيمانية وجدانية، يجد حلاوتها من عاشها، وتمكنت من قلبه ونفسه، لتفيض على أعماله وتصرفاته سعادة إيمانية لا تساويها، أو تقاربها أية سعادة أخرى بعيدة عن حلاوة الإيمان.

هذا الإيمان الذي تمكن من قلب المؤمن، فلم يعد شيء في الدنيا أحب إليه من الله ورسوله، وهذه أعلى درجات الإيمان إذا بلغها المؤمن عاش سعادة الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز العظيم.

ورب سائل يسأل؛ كيف يمكننا أن نَعْرِفَ أن هذا الإنسان يحب الله ورسوله أعظم مما سواهما، مع أن المحبة من أعمال القلب، ولا نطلع على ذلك؟!

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إذا تمكن حب الله تعالى وحب رسوله في قلب المؤمن، فإنه يحرص على اتباع أوامر الله تعالى، فينفذها ويتقيد بها، ويبتعد عن نواهيه، فلا يقع في المعاصي، ولا يقترف

1- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

الآثام، بل يكون حيث أمره الله بعيداً عن كل ما نهى الله عنه، وقد وصف الله تعالى أصحاب الرسول ﷺ، والذين اتبعوه بإحسان بقوله: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [1]،ووصف أهل الإيمان دائماً بالهداية، فقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [2]،وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [3].

وكذلك تظهر محبة الرسول ﷺ على جوارح المؤمن من خلال اتباع أوامر النبي ﷺ، واجتناب ما نهى عنه، فقد قال الله تعالى حاكياً على لسان رسوله عليه السلام: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [4]، فاتباع النبي ﷺ مظهر واضح من مظاهر الإيمان، كما أنه طريق إلى محبة الله ورسوله.

كما أن الإعراض عن محبة الله، أو محبة رسوله سبب في هلاك الأمة، ومدعاة لتغييرها، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [5].

وقد ظهرت شدةُ محبةِ أصحابِ النبي ﷺ لنبيهم، حين كانوا يعرضون أنفسهم للموت، ويتلقون السهام في صدورهم وظهورهم كي لا تنفذ إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما نقلته كتب المغازي والسير، كما كان الواحد منهم يعبر عن هذه المحبة بقوله: بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

وقد جعل النبي عليه السلام محبته دلالة على إيمان المسلم، فقال:"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"[6].

وفي حديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:"يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ"[7].

1- المائدة:119، التوبة: 100، المجادلة: 22، البينة:8.

2- الأنعام:90.

3- البقرة:165.

4- آل عمران:31.

5- المائدة:54.

6- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ.

7- صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ.

أي أن كمال الإيمان وحلاوته لا يتحققان إلا حينما يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه وماله وولده ووالده.

ولعل في قصة زيد بن الدثنة الذي أسرته قريش ما يشير إلى هذه المحبة، فحين جاءت به قريش لتصلبه قالوا له:"أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال:لا، والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه"[1].

هكذا كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له، يفتدونه بالمهج والأرواح والمال والأولاد، ويحرصون عليه أن لا يمسه أدنى أذى من أعدائه ومن المشركين.

فقد حازوا أعلى مراتب الإيمان والمحبة، وذاقوا حلاوة الإيمان وطعمه، فكانوا من السابقين والمقربين، وبشرهم الله جل وعلا برضوانه، كما زكاهم رسول الله ﷺ.

ومن دلائل الإيمان محبة المؤمن لأخيه المؤمن،"وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ"[2]،وهذه المحبة الإيمانية هي الدلالة الصادقة على إيمان العبد، إذ إن صلة العقيدة هي الرابط الوحيد في هذه المحبة، إذ لم تقم هذه المحبة على أساس من المنافع الدنيوية، أو رغبة في مزيد من حطام الدنيا وزخارفها، بل جاءت خالصة لله تعالى، فاستحق صاحبها أن يكون مؤمناً، وأن يجد حلاوة هذا الإيمان.

وأبرز نموذج في هذا المجال، ما كان بين أصحاب النبي ﷺ، حيث تآخوا في الله، وتقاسموا مع بعضهم بعضاً لقمة العيش عن طيب نفس، ذكرهم الله في كتابه تعالى فقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

وقد وصف الله أهل الإيمان بأنهم كالبنيان المرصوص، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[4].

1- أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 200/6.

2- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

3- الحشر:9.

4- الصف:4.

والرسول ﷺ يصف المؤمنين بقوله:"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ"[1].

وقد جعل الرسول ﷺ من دلائل الإيمان أن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه، فقال:"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[2].

وأما الدلالة الثالثة من دلائل الإيمان فهي كراهة المؤمن أن يعود إلى الكفر والعياذ بالله، أو يرتد عن هذا الإيمان وهذا الدين، كما يكره أن يلقى في النار.

إذ إن نار الكفر أشد من نار الدنيا وحرارتها، فالكفر يقود إلى الهلاك في الدنيا، وإلى عذاب النار في الآخرة.

فمن أنار الله قلبه بالإيمان، ووجد حلاوة هذا الإيمان، فإنه يبغض كل مسالك الشرك، ويكره كل سبل الضلال والمعاصي والغواية.

ولذلك كان البعد عن المعاصي والكفر وكراهة الوقوع فيها، ككراهية الردة عن هذا الدين، وهي دلالة واضحة من دلائل الإيمان الذي يعصم صاحبه من المعاصي ومن مهاوي الضلالة والغواية.

فمن اجتمعت فيه هذه الإشارات والبشارات الإيمانية؛كان مؤمناً وجد حلاوة الإيمان، وتمكن الإيمان من قلبه، فمن وجد في قلبه هذه الدلائل، فليحمد الله تعالى، وليحافظ على زيادة إيمانه، متمسكاً بمحبة الله ورسوله وإخوانه المؤمنين، كارهاً لكل مظاهر الفسوق والعصيان، حتى يفوز ببشارات النبي الأسوة في بيانه لدلائل الإيمان وحلاوته، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

من حرص النبي عليه الصلاة والسلام على أمته الإسلامية، أن بين لنا سبل الهدايات وطرق النجاة والفلاح للفوز بجنة الرضوان التي أعدها الله لعباده المتقين، فهو عليه الصلاة والسلام حريص على هذه الأمة رؤوف بها، ألم يصفه مولاه جل وعلا بذلك ؟ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (1).

ومن مظاهر حرصه عليه الصلاة والسلام على أمته، ونصحه لها ورأفته بها للفوز في الدنيا والآخرة، ما رواه أبو أمامة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:" اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ"(2).

في هذا الحديث من جوامع كلم الرسول ﷺ، يبين لنا الحبيب الأكرم عليه الصلاة والسلام خصالاً إذا راعيناها، وحافظنا عليها، وأديناها على وجهها الصحيح، فإنها تقودنا إلى رضوان الله والفوز بالجنة، وأولى هذه الخصال: التقوى؛ والتقوى هي صفة جامعة لكل ما يتقيه الإنسان ويبتعد عنه، مما يخدش العقيدة ويفسد العمل، فهي صمام الأمان للمسلم حتى لا يقع فيما يغضب الله تعالى. وقد وصفها بعض العلماء بقوله:" هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والتأهب ليوم الرحيل".

كما أن التقوى كالطريق التي فيها الشوك، من سلكها شمر ثيابه وحزمها خشية أن تعلق بها الأشواك، وقد ذكر الله تعالى التقوى بأنها ثمرة لأعمال الخير والعبادات التي يؤديها الإنسان، وهو مقبل على الله بنية خالصة، فقال تعالى بحق الصيام: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (3).

1- التوبة:128.

2- سنن الترمذي، كتاب الجمعة عن رسول الله ﷺ.

3- البقرة:183.

ووصف جل وعلا المتقين بأنهم يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (1).

ثم أشار عليه الصلاة والسلام بعد التقوى التي هي من أعمال القلب إلى عمل آخر وهو الصلاة، فأمرنا بأداء الصلوات الخمس المفروضة، إذ إن الصلاة ركن مهم من أركان الإسلام، بل هي عمود هذا الدين، وهي العلامة الفارقة بين أهل الإيمان وأهل الكفر والعياذ بالله، لذا حث عليها الرسول ﷺ وأمرنا بأدائها على الوجه الأكمل لأنها الصلة بين العبد وربه، وبها يتطهر المسلم من ذنبه، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ . قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا"(2).

فالمحافظة على الصلوات الخمس وأدائها في أوقاتها بشروطها وأركانها من الوسائل التي تقود إلى الفوز بالآخرة بدخول جنة الله سبحانه وتعالى، ولذا حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بيان فضل هذه العبادة، وحث المسلمين على أدائها في جماعة لتحصيل المزيد من الثواب والدرجات التي توصل إلى الفوز بالجنة، ثم ذكر عليه السلام ركناً آخر من أركان الإسلام بعد الصلاة وهو الصيام، فقال عليه الصلاة والسلام : "وصوموا شهركم" ومعلوم أن الله تعالى فرض علينا صيام شهر رمضان، فقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (3).

كما أمرنا رسول الله ﷺ بصيام هذا الشهر .فجاء في الحديث الشريف: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(4).

1- البقرة2-3.

2- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

3- البقرة : 185.

4- صحيح البخاري،كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.

وفي حديث آخر:"الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"[1].

ففضل الصيام عظيم، وثوابه كبير، ويكفي للدلالة على ذلك ما ورد في الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ، قال: قال الله تعالى:" لكل عمل كفارة، والصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"[2]. وجزاء الله تعالى عظيم وكبير، يقود إلى الفوز بالجنة التي يكرم الله الصائمين بدخولها من باب الريان، نسأل الله تعالى أن نكون منهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ثم يبين رسول الله ﷺ، عملاً آخر وهو ركن من أركان الإسلام يقود إلى دخول الجنة، إنها الزكاة المفروضة على من ملك نصاب الزكاة من المال أو الزرع أو الأنعام أو عروض التجارة، هذا الركن المالي الذي يؤديه المسلم طهرة لأمواله ومنفعة لإخوانه المحتاجين والفقراء،قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[5].

وللزكاة منافع كثيرة تعود على الفرد والمجتمع من حيث إشاعة التعاون والتكافل بين أبناء المجتمع، وتمكين أواصر المحبة، والبعد عن البغض والحسد حينما يؤدي المسلم زكاة ماله لمحتاجيها.

كما أن الزكاة تسد خللاً كبيراً في النظام الاقتصادي من حيث كفاية الفقراء والمحتاجين، وحينما عمل المجتمع المسلم وفق شريعة الإسلام، وأدى الزكاة، لم يبق محتاج إلى هذه الزكاة، ولم يجد يحيى بن سعيد عامل الزكاة في شمال إفريقيا زمن الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز من يأخذ الزكاة، فقال قولته المشهورة:(لقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس)، وهكذا وصل المجتمع المسلم إلى حد الكفاية، وما ذلك إلا بتقوى الله وأداء ما عليه من الفروض والواجبات .

1- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان.

2- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه.

3- التوبة:103.

4- المعارج:24-25.

5- الحج:78، المجادلة 13.

ألا فلينظر المقصرون في أداء زكاة أموالهم إلى هذا الفضل العظيم الذي أعطاه الله للمزكين، إذ جعل ذلك طريقاً إلى الجنة. فأداء الصلوات المفروضة وصوم رمضان وأداء زكاة الأموال بجانب تقوى الله من أقرب الطرق إلى الجنة والفوز بها. إذا اقترن ذلك بطاعة أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (1).

وقول الرسول ﷺ:"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ"(2).

فطاعة ولي الأمر القائم على حدود الله والمطبق لشريعة الله واجبة على الرعية، وعلى الرعية أن تقدم له الطاعة والنصيحة لقول الرسول ﷺ : "الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا:لِمَنْ قَالَ:لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ"(3).

فمن عمل بمقتضى حديث رسول الله ﷺ، والتزم التقوى، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وأطاع ولي الأمر بالمعروف، فجزاؤه دخول جنة الله تعالى التي أعدها للمتقين، وأمرنا بالمسارعة إليها بالعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (4).

نسأل الله تعالى أن نكون من عباده المتقين الصالحين، ونقيم الصلاة، ونصوم رمضان، ونؤدي الزكاة، ونحج بيته الحرام، مخلصين لله غير مشركين به، نرجو رحمته ونخشى عذابه، ونتوب إليه من جميع ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا .

ونسأله تعالى أن يكرمنا في شهر رمضان بالمغفرة والرضوان حتى نفوز برضاه، وتشملنا رحمته بدخول جنته دار السلام بسلام، إنه خير مأمول وأكرم مسؤول، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

1- النساء:59.

2- صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب السمع والطاعة.

3- صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة.

4- آل عمران:133.

لما كانت الدنيا دار الابتلاء ودار العمل، ودار الفتن والشهوات، والناس بطبائعهم يميلون لمتاع الدنيا والاستزادة منه، ولا يبالون في جمعه من حلال أو حرام إلا من رحم ربك، فقد حذر رسول الله ﷺ من هذا البلاء فيما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[1].

في هذا التحذير الشريف من رسول الله ﷺ للمسلمين من مخاطر الدنيا وشهواتها، ما يزود المسلم بسلاح الحذر واتقاء مفاتن الدنيا، فلا يقبل المسلم على هذه المفاتن، بل يتجنبها ويتقيها، حتى لا تقوده إلى الهلاك وخسران الآخرة.

ولعل من أكبر الفتن في هذه الدنيا المال والنساء، ولذا حذر رسول الله ﷺ من الوقوع في فتنة المال، كما حذر من الوقوع في فتنة النساء، فقد ورد في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال:" أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الْأَرْضِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ قَالَ: لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، إِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ، فَإِنَّهَا تَأْكُلُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ، ثُمَّ اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ"[2].

فالمال فتنة كبيرة أهلكت كثيراً من الأمم، حينما أقبلت على الدنيا وجمع حطامها، وتنافست على هذا الحطام، فعصت الرسل، وكذبت برسالات الله، وأعرضت عن هداياته، فأصابها العذاب الأليم في الدنيا، وقد ذكر الله في القرآن الكريم هلاك هذه الأمم، وقص علينا سيرتهم حتى نأخذ العبرة،

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا.

ونتجنب صنيعهم، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (1)

وحتى نقبل على هذه الدنيا بحذر، نأخذ منها حاجتنا من طريق الحلال، ومن وسائل الكسب المشروعة، ونؤدي حق الله في هذا المال من زكاة وصدقات وأعمال البر، ولا نكون ممن يجمع المال وينسى حق الله فيه، فهو كالشره الذي يأكل ولا يشبع، ولسان حاله يقول هل من مزيد؟!

فيقوده المال ـ والعياذ بالله ـ إلى الهلاك، ويندم في يوم لا ينفع فيه الندم.

ولذلك حذر رسول الله ﷺ من اتساع الفتوح على المسلمين، فيقبلون على الدنيا، فتهلكهم، فأشار إلى ذلك بقوله:" أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"(2).

وقد روي أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ ـ وهو من المبشرين بالجنة ـ "أُتِيَ بِطَعَامٍ، وَكَانَ صَائِمًا، فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ، إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ، بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ، بَدَا رَأْسُهُ وَأُرَاهُ، قَالَ: وَقُتِلَ حَمْزَةُ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ، أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي، حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ" (3).

إنهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين يخافون فتن الدنيا ولذاتها، فيتحرجون منها، ويتركون المباح، ويتورعون عن الاستزادة من الحلال، فغاية المؤمن أن يخرج من هذه الدنيا سليماً من فتنها، معافىً من آثامها، حتى يلقى الله تعالى وهو راضٍ عنه، نسأل الله لنا ولجميع المسلمين العفو والعافية والفوز بالنجاة في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

ومن الفتن القاتلة في هذه الدنيا بجانب المال النساء، ولم يعد خافياً على أحد عظم البلاء من فتنة النساء، وما نشاهده من المتبرجات، وما يحدثنه من فتن في المجتمع، دليلٌ واضحٌ على البلاء والفتن، التي وقع ويقع فيها كثير من أبناء الأمة، جراء هذا الانفلات الذي لا ضابط له، والذي أوغل كثيراً في

1- العنكبوت:40.

2- صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب.

3- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

أبواب الفساد من التبرج والترجل وتغيير خلق الله، بعيداً عن الحشمة والاحتشام الذي دعا إليه ديننا الحنيف في تعاليمه السمحة، التي تحافظ على كرامة المرأة، وعلى إنسانية كل من الرجل والمرأة في مجتمع نظيف كريم، يتحلى بالأخلاق والقيم الفاضلة، بعيداً عن بلاء الدنيا وفتنها الجارفة.

لذا رأينا رسول الله ﷺ يحذر من الدنيا ويقلل من شأنها، حتى لا يغتر بها المسلم الذي ينتظر الثواب العظيم، والأجر الجزيل في دار الخلود، التي أعدها الله لعباده المتقين الصالحين، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[1].

والله تعالى يقول عن الدنيا: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[2]. كما يضرب المثل لمتاعها الزائل بقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾[3]. فهي تزهو فترة قصيرة، ثم تزول بسرعة، مثلها كفصل الربيع، الذي تزهو فيه النباتات، وتأخذ الأرض زينتها، ثم يتبعه فصل الصيف، الذي يذهب بالخضرة، ويحيلها إلى صفرة وحطام يطير مع الريح.

ولذلك قال رسول الله ﷺ حينما أراد أصحابه أن يغيروا له الفراش:" مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[4].

وقال كذلك عن الدنيا:"مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ، إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ"[5].

فعجباً لمن يتسابقون على متاع الدنيا من أبناء المسلمين، ولا يتحرجون في أخذه من حرام، وهم يعلمون ذلك، فيخوضون في أموال الأمة وحقوق شعوبهم ويتصرفون بها دون وجه حق، ويأكلون حقوق الناس بالباطل، طمعاً في جمع المال وزخرف الدنيا الزائل.

1- القمر:55.

2- آل عمران: 185، الحديد: 20.

3- الحديد:20.

4- سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء في أخذ المال بحقه.

5- سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله.

وكأن لسان حالهم يقول: لنجمع ما نستطيع من هذا المتاع لأنفسنا وأبنائنا وأهلنا،وما دروا أنه "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ... عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ"[1]، وكثيرة هي الأقدام التي ستقود أصحابها إلى العذاب الأليم، والعياذ بالله.

فعلينا إخوة الإيمان، أن نكون على حذر من إقبال الدنيا ومتاعها، حتى نتجنب فتنها، ونتقي شرها، ونجتازها إلى الآخرة، مستبشرين بنعمة من الله وفضل ورضوان، يقود إلى جنة الخلد بعفو الله ورحمته، إنه هو التواب الرحيم.

وقد أخبرنا الرسول الأسوة ﷺ عن هوان الدنيا عند الله تعالى، فقال:" لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ" [2]. وفي حديث آخر قال:" إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا، حَمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ" [3]. فالدنيا هذه ما كانت كذلك إلا لدنوها وهوان منزلتها عند الله تعالى، لأنها دار الفتن والبلاء والابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [4].

فالسعيد من اقتدى بهدي المصطفى ﷺ، والشقي من أعرض عنه، وأقبل على الدنيا الملعونة، التي قال عنها الرسول ﷺ:" الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا"[5].

وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، وآله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه أجمعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- سنن الترمذي،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص.

2- سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ.

3- سنن الترمذي، كتاب الطب عن رسول الله، باب ما جاء في الحمية.

4- هود:7، الملك:2.

5- سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا.

إن من كمال أخلاق النبي ﷺ ـ الذي مدحه الله تعالى بالخُلق العظيم، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ـ تواضعه لإخوانه الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام، فقد كان عليه الصلاة والسلام متواضعاً في كل أحواله، خاصة مع المسلمين، وأحبابه من المؤمنين، وكان يمر بأطفال المسلمين يداعبهم، ويدعو لهم، ويمسح على رؤوسهم، وهو القائل عن التواضع:" مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ "[2].

فالداعي إلى التواضع ولين الجانب، هو إمام المتواضعين، قولاً وفعلاً وحالاً، يوجه أتباعه، ويعلم أصحابه، ويحث أحبابه ومحبيه على الخلق الكريم، والأدب الرفيع مع خلق الله، وبخاصة إخوانه من الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال:" جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ لَطَمَ فِي وَجْهِي، قَالَ: ادْعُوهُ، فَدَعَوْهُ، قَالَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، قَالَ: قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ، فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ "[3].

1- القلم:4.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.

3- صحيح البخاري ، كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب رواه أبو هريرة.

وفي حديث آخر، يقول عليه الصلاة والسلام:" النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ"[1].

وفي موضع آخر يقول عليه الصلاة والسلام:" لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[2].

إنه أدب النبوة العظيم، يوجه أتباع النبي ﷺ إلى التأدب مع كل الأنبياء والمرسلين، والنظر إليهم بما يتفق مع مقتضيات الإيمان وأخلاق الإسلام، التي تجل كل الأنبياء والمرسلين، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3].

فلا يتم إيمان المسلم إلا بالاعتقاد والإيمان بجميع رسل الله وأنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، فهم عباد الله المصطفون، وأنبياؤه المخلصون، ورسله الأكرمون، أرسلهم الله لهداية الخلق إلى توحيد الله رب العالمين.

فرسالتهم واحدة، ودعوتهم يُكمل بعضها بعضاً، انتظمهم سلك التوحيد، من أبيهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ.

فلا يدرك منازلهم، ولا يعلم مقاماتهم، إلا الله تعالى الذي اصطفاهم وفضلهم على العالمين، وهو جل شأنه أعلم حيث يضع رسالته، وهو سبحانه القائل ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[4].

1- صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها.

2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين.

3- البقرة :285.

4- الحج: 75.

والرسول ﷺ ، وهو يتواضع لإخوانه من الأنبياء والمرسلين، يعلم أمته هذا التواضع، حتى لا تقع في خطأ التطاول، أو الغض من منزلة أحد من الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فأفضلية البشر هي أفضلية عند الله تعالى، يختص بها من يشاء من عباده، وهو سبحانه الذي لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

فأفضلية النبي ﷺ هي أفضلية عند الله تعالى، واصطفاء منه له عليه الصلاة والسلام، على جميع خلقه آخذاً بذلك الميثاق على أنبيائه ورسله أن يؤمنوا به وينصروه، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1].

وهي أفضلية قطعية دلت عليها آيات الكتاب المبين والسنة النبوية الشريفة، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

فقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبعثون لأقوامهم خاصة، وهو ﷺ بعث للناس جميعاً، إنسهم وجنهم.

وقد اختصه الله تعالى بالشفاعة الكبرى، فكل الأنبياء يومئذ يقولون: نفسي نفسي، إلا نبينا ﷺ فيقول أنا لها، ويشفع للخلق.

كما أعطاه الله الفضيلة، والدرجة الرفيعة في الجنة، ولا تكون إلا لواحد من خلق الله، ويبعثه الله مقاماً محموداً.

والناظر إلى الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، يجد أن أفضلية النبي ﷺ من عند الله تعالى أولاً وآخراً، فهو جل شأنه الذي اصطفاه ، وختم به النبيين، وأرسله رحمة للعالمين، وأعطاه الخلق العظيم، وجعله رسولاً إلى الناس كافة، وفضله بما جبله عليه من الأخلاق الكريمة،

1- آل عمران: 81

2- سبأ:28

والخصال النبيلة؛ من الجود والكرم، فكان أجود الناس، وأشجعهم، وأحلمهم، وأصبرهم، دعا إلى الله على بصيرة، فكان على أحسن سيرة، وأطيب سريرة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وأثنى على إخوانه من النبيين والمرسلين بحسن الذكر، ورفع الشأن، فقال بحقهم:" مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ"[1]، وأثنى على عيسى عليه السلام بقوله:" مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾"[2].

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:" يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام"[3].

وقال بحق يوسف عليه السلام حين سئل عن أكرم الناس:"... يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ..."[4].

فقد عرف ﷺ لإخوانه الأنبياء قدرهم ومقدارهم، وأثنى عليهم بما هم أهل له، وعلمنا الأدب معهم، والوقوف عند منازلهم، تأدباً واحتراماً، حتى لا نقع في سوء الأدب معهم، أو نسيء جهلاً إلى أحد منهم.

فصلاة الله وسلامه على أنبياء الله ورسله جميعاً، وآلهم، وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين.

2- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام.

3- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ.

4- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين.

الفصل الثاني

ذكرى المولد والهجرة		
6	في ذكرى مولده الشريف (أ)	26
7	في ذكرى مولده الشريف (ب)	31
8	يأخذ بالأسباب في هجرته	35

9/ربيع الأول/1430هـ وفق 2009/3/6م

تثير ذكرى المولد النبوي الشريف في نفوس المؤمنين برسالة صاحبها ﷺ، خواطر عديدة، فميلاده أدى بحق إلى ميلاد أمة الإسلام، التي سطع نورها ببعثته ﷺ، وعاش بعدها نبياً مرسلاً سنين معدودة، ثم جرت عليه سنة الله في خلقه، فمات تاركاً إرثاً تناقلته الأجيال تلو الأجيال، حتى جاب إرثه شرق الدنيا وغربها، ولا تكاد بقعة في الدنيا ليس له فيها أتباع، فذكرياته جديرة أن تكون محطات للتأمل والمراجعة، والبحث عن درب العمل على نهجه ﷺ، فذكرى ميلاده ليست مناسبة خاصة بحدث عابر، بل إن أمرها عظيم، صدق فيه أحمد شوقي حين قال:

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

فمحمد ﷺ، كان أحد مواليد الخلق الذين جاءوا الدنيا عبر المكان والزمان الضارب في عمق التاريخ البشري، الممتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، غير أن أكثرهم دخلوا الدنيا وخرجوا منها دون أن يتركوا وراءهم بصمةً أو أثراً خاصاً عوضاً عن العام، حتى إن عظماء الناس ومشاهيرهم لم ولن يبلغوا ما بلغه شأن سيد الخلق محمد ﷺ، فرسالته انتشرت في المعمورة في فترة زمنية معدودة السنين، واخترقت حواجز الزمان والمكان، فوجدت لها الأتباع والمحبين بين شعوب الأرض قاطبة، متخطية الصعاب والعقبات، فرغم حبك الكيد والمؤامرات لاجتثاث هذه الرسالة السماوية، فإنها ما زالت قائمة وأتباعها في ازدياد، وقد كانت هذه إحدى سماتها المعروفة لدى أتباع الديانات السابقة لميلاده وبعثته، عليه الصلاة والسلام، ففي صحيح البخاري من خبر الحديث المطول الذي دار بين أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه وهرقل عظيم الروم، الذي سأل فيه هرقل عن النبي محمد ﷺ، أسئلة عديدة، وكان أبو سفيان يجيب عنها، ومن ذلك سؤاله عن نسبه وأتباعه، فسأل هرقل :"كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ فأجاب أبو سفيان : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ

مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ :لَا، قَالَ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ : أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ : فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً [1]لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، قُلْتُ: لَا.**ثم وضح هرقل دوافعه لهذه الأسئلة**، فقال: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا[2] وَسَأَلْتُكَ، هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ،وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنْ لَا ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ[3]"[4].

وفي هذا بشرى لكل محبي محمد ﷺ، والمؤمنين برسالته، فالكيد ضدهما خاب، وانتكس في الماضي القريب والبعيد، وسيواصل تخبطه في الخيبة والخسران، لأنه في مواجهة مضادة لما أراده الله وقرره في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[5] **فنور الإسلام لن يخبو، وأمة محمد ﷺ، ستبقى عظيمة بإسلامها، ولن تنكسر قناتها، ولن يقضى على بيضتها، كيف لا ؟! والله يرعى مسيرتها، ويحفظ وجودها، ويتكفل**

1ـ أخرج بهذا من ارتد مكرها، أو لا لسخط لدين الإسلام بل لرغبة في غيره كحظ نفساني، عمدة القاري 88/1.

2ـ الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة، فتح الباري 37/1.

3ـ أي : يخالط الإيمان انشراح الصدور، النهاية في غريب الأثر 130/1.

4ـ صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.

5ـ التوبة:32.

بحماية سوادها، وقد أكد الرسول ﷺ، هذه المعاني والآمال، فقال: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ"[1]

وفي ذكرى المولد النبوي يجدر التأمل بالمنهج الذي رسمه صاحب الذكرى ﷺ، للمسلمين، والذي كان شاملاً كاملاً، تنتظم فيه شؤون حياتهم الدنيا، وطريقهم للنجاة والفوز بالآخرة، وكان من معالم هذا المنهج أن الرسول ﷺ، كان أسوة للمسلمين في إرساء قواعد العلاقة بينهم، على أساس من تبادل التراحم فيما بينهم، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾[2] وما الخروج عن هذا الأساس، سوى انحراف واضح عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم الذي جاء به خاتم النبيين عن رب العالمين، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، ويبوء بضنك العيش، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾.[3] وأملنا أن لا نساق إلى هذا الضنك مع من أتى أسبابه، متنكباً منهج الحق الذي جاء به الروح الأمين من لدن عليم خبير، وفي المتنكبين يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ ننبكم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾[4]

وفي هذا العام تحل ذكرى مولد النبي محمد ﷺ، على أمة الإسلام وهي، منشغلة إلى حد ما بمحاولة جمع الشمل الفلسطيني، ونزع فتيل النزاع الطاحن بينهم، فكثرت الدعوات التي تركز على ضرورة تفعيل الحوار بينهم، وهنا يمكن القول: إنه حين لا يجدي الرجاء، ولا تنفع المحاورة الحسنة مع بني جلدتنا الذين يتكلمون بألسنتنا، ويصرون على تخطي الخطوط بألوانها السوداء

1ـ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين.

2ـ الفتح: 29.

3ـ طه: 124ـ 126.

4ـ الكهف: 103 – 104.

والحمراء وغيرها، نسوق لهم قول النّبي ﷺ: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ "[1] وإلا كيف لنا أن نعثر على تفسير منطقي لما يجري على ساحتنا الفلسطينية التي يتمثل فيها حال الأمة برمتها، فأجسادنا مثخنة بالجراح العميقة، والخطر الداهم محيط بنا إحاطة السوار بالمعصم، وقد مثلت حرب غزة صورة له، فطالت الشجر والحجر والبشر، فهدمت المساجد، وأهلكت الزرع، ودمرت البيوت على رؤوس أصحابها، وعن الأطفال لا تسل، فقد ارتقت كوكبة منهم بدمائها الزكية في بث حي ومباشر عبر فضائيات العالم عربه وعجمه، ولم يلق اغتيال طفولتهم البريئة إلا شجباً على استحياء، وما زالت الاستغاثة برص الصف وجمع الشمل قائمة، رجاء الإجابة، فالشد الفصائلي ما زال أقوى من صور الدمار، وأعتى من الخطر الداهم، وما زال الخلاف قائماً على جلد الدب قبل صيده !!!.

أليس من حق المواطن المكتوي بنار الحرب أن يسأل عن جدوى الحرب الإعلامية الضروس، بين الفئات الفلسطينية، هل هي تخدم المصلحة العليا لهذا الشعب الصابر المرابط؟ أو أنها تهدي ثمارها لصالح المتربصين بالجميع؟ أفلا نجد مصلحة في كظم الغيظ، وضبط الأعصاب؟ عوضاً عن كيل التهم بحجة الرد والصد دون حسيب ولا رقيب.

فوا أسفاه على حال يندى له الجبين، ويخجل منه كل كريم. فلو قدر لساستنا تخيل لقاء بمن سبق بالشهادة وارتقى بالعز في عليين، ماذا سيخبرونهم عن إنجازاتهم على درب التحرير، هل يجرؤ أحد ساعتها أن يبرر فعلته في تأجيج الصراع الداخلي؟ وكيف إذا وقفوا بين يدي ربهم للحساب العسير، ما الذي سينجيهم من كرب يومئذ، إنه بالتأكيد ليس الانتصار للأهواء والشخوص والأحزاب، والمتاجرة بمعاناة الناس، والاستخفاف بدماء الأبرياء وحياتهم، وإنما النجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون، تكون بصدق المواقف، وإخلاص النوايا، وحسن القول والعمل، على كل صعيد وحال.

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

فإذا لم يستح المساهمون في فعلة الفرقة، من شناعة ما اقترفت أيديهم، فإن الكثرة المغلوبة على أمرها من شعبهم وأمتهم تبكي دماً حرقةً على وضع يساسون فيه بالطريقة التي تلحق بهم العار والذل والخزي والخسارة تلو أختها، دون أن يكون لهم حول ولا قوة في تغييرها، مستأنسين بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فهذه وقفة مع بعض التأملات المستلهمة في ظلال ذكرى المولد النبوي للعام الثلاثين بعد القرن الرابع عشر الهجري، والتي شملت التأكيد على أن ميلاده ﷺ، جسد ميلاد أمة الإسلام التي يزيد تعدادها مع مر الأيام ولا ينقص، وحملت البشرى بانتكاس الباطل، وبزوغ فجر الحق، الذي جاء به صاحب الذكرى، عليه الصلاة والسلام، رغم الأسف على من تنكب الدرب من المسلمين، الذين صار بأسهم بينهم شديداً، فتمرغوا ضنك العيش، ويخشى أن يصيبهم ما أصاب الأخسرين أعمالاً.

وقادت مناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف إلى تأملات في أحوال الصف الفلسطيني وأهواله، تلمساً للاعتبار بالتذكير، عسى أن يكون في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، يوم مولده، ويوم بعثته، إلى يوم الدين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال تعالى :

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً } (الأحزاب:45)

في ذكرى المولد النبوي الشريف، يستحضر المؤمنون عظمة هذا الرسول الكريم ورحمته ﷺ، الذي اختاره الله تعالى خاتماً للأنبياء والمرسلين، وجعل شريعته عامة للعالمين، مهيمنة على سابقاتها من الشرائع، حيث بنيان البشرية قد اكتمل، وبلغت رشدها، فكان لها أن تحظى بالشريعة العامة، والرسالة الخاتمة، التي كانت ـ بفضل الله تعالى ـ من نصيب أمتنا الخيرة، فكان مولد النبي ﷺ، إكمالاً لبنيان النبوات، فقد أخبر ﷺ، بأن مثله ومثل الأنبياء قبله كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله، إلا موضع لبنة، ومن يمر بهذا البيت يقول: ما أجمل هذا البناء إذا اكتملت اللبنة، فكان ﷺ، اللبنة التي اكتمل بها بنيان النبوات، قال ﷺ:" إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ، وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ"[1].

وجاءت هذه اللبنة الطيبة الكريمة في وقتها، وفي موضعها، فقد كان مولده ﷺ، في زمان اشتدت حاجته إلى رسول ينقذ البشرية، من وهدة الضلال التي ارتكست فيها، إلى نور الإسلام، ويأخذ بيدها إلى سبل الكرامة الإنسانية، في ظل الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، إيمان ينقذ الإنسان من عبادة الأحجار والأوثان والأصنام، والنار والكواكب، إلى عبادة رب الكون بأكمله، ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾[2]، وسخر ما في هذا الكون بفضله، لنعمة الإنسان

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ.
2- الأعلى: 2.

وخدمته، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1]، وله الحمد والمنة، أن: ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[2] .

ولقد أصاب الشاعر بوصف هذه الحالة، والتيه الذي كانت تعاني منه جزيرة العرب والعالم، قبل بعثة النبي ﷺ، وهو يمدح الرسول ﷺ، بقوله:

رسول أتى في آخر الرسل بعثه ... ولكنه في الفضل في أول الذكر
رفيع العلا من شق جبريل صدره ... وطهره فازداد طهراً على طهر
رحيم حليم طيب القول واللقاء ... فأول ما يلقاك يلقاك بالبشر
رحمنا به إذ جاء في ليل تيهنا ... فلاح لنا من وجهه غرة الفجر

لقد كان مولده ﷺ، رحمة، وكانت رسالته نعمة، وشريعته عامة، أخذت بيد الناس إلى اليسر في الأحكام، وما يصلحهم في الدنيا، ليفوزوا بنعم الآخرة.

وقد تحلى رسولنا الأكرم ﷺ، بكل خلق كريم، وأدب رفيع، وكمال في الخَلق والخُلق، عرفه الناس به قبل الرسالة، فكانوا يطلقون عليه في قومه الصادق الأمين، وهذا إرهاص للنبوة، فالصدق والأمانة من أوصاف الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لقد نشأ الأمين ﷺ، بين بني قومه، وهم يدركون هذا التميز فيه، والعاقل منهم ينتظر أن يكون له شأن في مقبل الأيام، فلم يعرف ﷺ، لهواً مما كان يشغل أهل مكة، كما لم يشاركهم مجلس شرب، أو مجلساً لا تعظم فيه الأخلاق.

وهو اليتيم الذي فقد أباه قبل أن يخرج إلى هذه الدنيا، وفقد أمه منذ نعومة الأظفار، فكفله الجد، ثم العم، ولكن الكافل الحقيقي له، الذي رباه على عينه وإرادته، ليهيئه لحمل رسالته، هو الله تعالى، الذي إذا أراد أمراً هيأ كل أسبابه، فكان كما أراده من إذا قال للشيء كن فيكون،

1- المؤمنون :14.
2- الجمعة: 2.

فسبحان من خص نبينا ﷺ، بهذا المقدار، بأن جعله رحمة عامة للعالمين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، فهو ﷺ، رحمة للعالمين، ورسول الله للناس أجمعين.

فقد أسندت له قيادة البشرية بجدارة واستحقاق، وختمت به الرسالات وفق حكمة إلهية، وإرادة ربانية، فتبارك الله رب العالمين، الذي لا يسأل عمل يفعل، وهم يسألون.

وإن المطلع على سيرة المصطفى ﷺ، يجد الكمال في كل مناحي حياته، عليه الصلاة والسلام، فأقرب الناس إليه، وهن أمهات المؤمنين، يصفنه كما تقول أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ "[3].

ومن كان القرآن خلقه، فإن أخلاقه ربانية، نورانية، لأن القرآن كلام الله تعالى، أوحاه إلى رسول الله ﷺ، بوساطة أمين السماء جبريل، إلى أمين الأرض محمد، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ومن تمثل القرآن في أخلاقه، لا يزيغ أبداً، ولا يأتي إلا بخير، ولا يفعل إلا ما يرضي الله تبارك وتعالى.

وإذا تتبعت مكارم أخلاقه ﷺ، في بيته، أو في مجتمع من الناس، أو في السلم، أو في الحرب، أو في المعاهدة، أو بيان الأحكام وجدت القدح المعلى في كل ذلك، فهو في بيته ﷺ، أرحم الناس، وأشفق الناس، وأعدل الناس، يقسم بين زوجاته، ويعدل بينهن؛ في المطعم، والمشرب، والمنام، ويؤانس أهله، ويسامرهم، ويدخل السرور عليهم.

وفي معاملة الأبناء؛ هو الأب الرحيم والحاني عليهم، كان يقوم في وجه فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، ويبتسم لها، ويقبلها، ويجلسها إلى جانبه، ويفرش لها رداءه.

1- الأنبياء:107.

2- سبأ:28.

3- مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، باقي المسند السابق.

وتمتد هذه الرحمة إلى أبناء المسلمين من المهاجرين والأنصار، فحين يلقاهم؛ يسلم عليهم ويمازحهم، ويداعبهم.

أما من يخدمه؛ فيلقى منه كل خير، فقد روى أنس بن مالك:" خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، لَا وَاللَّهِ مَا سَبَّنِي سَبَّةً قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ أَلَّا فَعَلْتَهُ "[1].

ويوصي المسلمين بخدمهم فيقول:" إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ"[2]

ويوصي بالإحسان إلى الأسرى بإطعامهم وكسوتهم، بل يتجاوز ويعفو عمن ظلمه وأخرجه من مكة، فيوم الفتح الأكبر لمكة، يخطب في أهل مكة، وقد اجتمعوا حول الكعبة المشرفة، قائلاً لهم:" ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم!! قال: فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء "[3].

إنها أخلاق النبوة، ومكارم الرسول ﷺ، الذي اختاره الله بَراً، رؤوفاً، رحيماً، فقال بحقه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، الرحمة المهداة، من الحق للخلق، وجعلنا في ذكرى مولده، ممن يتأسون بهديه، ويتبعون سنته، لنفوز برضوان الله تعالى، ونكون رفقاءه في الجنة.

1- مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

2- صحيح البخاري، كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ العبيد إخوانكم فأطعموهم.

3- سنن النسائي الكبرى، باب قوله تعالى إذا جاء الحق وزهق الباطل، سنن البيهقي 118/9، والحديث حسن بمجموع طرقه، انظر أرشيف أصل الحديث – 2 – 24 / 398.

4- التوبة:128.

لقد لبث رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً، يدعو إلى دين الإسلام، يبشر وينذر، ويأمر وينهى، يدعو عشيرته وأهله الأقربين، ويعلن للناس في أم القرى وما حولها أنه رسول رب العالمين، بعثه الله خاتماً للأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته عامة للخلق أجمعين، عنوانها توحيد الله وطاعته، ونبذ كل ضلالات الشرك والأوثان والأصنام والأوهام، ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (1)

إلا أن من أعمتهم نخوة الجاهلية، والتفاخر بالآباء والأنساب، والخوف على زعاماتهم الوهمية وامتيازاتهم الفارغة، وقفوا أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته موقف الجاحد المعاند، وألحقوا به ومن اتبعه من المؤمنين أشد أصناف الأذى في محاولات يائسة لثني عزيمتهم عن هذا الدين وإرجاعهم إلى متاهات الضلالة، فاستشهد من استشهد من المسلمين الأوائل كياسر وسمية ـ رضوان الله عليهما ـ وهاجر عدد منهم إلى الحبشة فراراً بدينهم كعثمان رضي الله عنه وأهله حينما أذن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى تلك البلاد التي كان يحكمها النجاشي، وهو ملك ـ كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ـ لا يظلم عنده أحد.

ولم يسلم هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة من أذى قريش، بل لحقتهم بوفودها إلى الحبشة تؤلب عليهم النجاشي، وتطالب بطردهم من بلاده، أما من بقي من المسلمين في مكة؛ فقد تعرضوا لأصناف الأذى من كفارها، وهم صابرون على دينهم لا يبالون بما يلحقهم من الأذى والعذاب في سبيل هذا الدين الذي ينور القلوب والعقول، وينتشلهم من غوايات الجهل والجاهلية، وعبادة الأصنام والأوثان والارتكاس في مهاوي الرذيلة.

1ـ إبراهيم: 1.

ولم يترك الرسول ﷺ باباً يخدم الدعوة إلا طرقه، أو قوماً يطمع في إسلامهم إلا تعرض لهم ودعاهم إلى هذا الدين، فكان يعرض دعوته على الحجاج القادمين إلى مكة من أرجاء الجزيرة العربية، كما ذهب إلى الطائف عله يجد من ينصر هذا الدين ويسير في ركابه، فرده أهل الطائف بما لا يليق بعابر طريق، فكيف بسيد الخلق أجمعين.

فقد أغروا به صبيانهم وسفهاءهم يدمون قدميه الشريفتين بالحجارة، لتأتيه ملائكة السماء، ومنهم ملك الجبال، طوع أمره، إذا أراد أن يلحق الأذى والعذاب بأهل الطائف أو كفار مكة، إلا أنه عليه الصلاة والسلام؛ وهو الرحمة المهداة من الحق للخلق، يدعو لهم بالهداية قائلاً:"اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"[1]، فتنزل قول الله تعالى واصفاً رسوله بالرحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، فلما رأى عليه الصلاة والسلام أن مكة وما جاورها أغلقت أبوابها في وجه الدعوة، وضاقت ذرعاً بهذا الدين العظيم، راح ينتظر الإذن من الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة التي بايعه أهلها عند العقبة بالنصرة والحماية، ممهدين بذلك السبل الكفيلة بإيجاد الجو المناسب لنمو الدعوة الإسلامية، واشتداد أزرها بإقامة المجتمع الإسلامي ودولة الإسلام الأولى بقيادة النبي ﷺ وصحبه الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ولعل سائلاً يسأل هل أخذ النبي ﷺ بالأسباب في هجرته، واحتاط بما يكفي لنجاح هذه الرحلة المخوفة بالمخاطر؟!

والجواب: نعم؛ إن الرسول ﷺ قد أخذ بالأسباب والاحتياطات الكفيلة بنجاح هذه الرحلة كافة، حتى في أدق التفاصيل التي بدأت باختيار الرفيق أثناء الرحلة وهو صاحبه المخلص، الذي كان أول الرجال إسلاماً، وهو ثالث ثلاثة من المسلمين، مع خديجة، رضي الله عنها، وعلي الغلام، كرم الله وجهه، آمنوا بهذا الدين واتبعوا سيد المسلمين والمرسلين على وجه الأرض.

1- الأحاديث المختارة 10 / 14، فتح الباري 282/12، شرح سنن ابن ماجة 291/1.

2- الأنبياء:107.

إنه الصديق أبو بكرﷺ الذي خرج مع النبي عليه الصلاة والسلام من الباب الخلفي لبيته باتجاه غار ثور، حيث اختبأ الاثنان مدة ثلاثة أيام، وقريش تلاحقهما، وتسأل عنهما، وتضع جائزة مائة من الإبل لمن يعثر أو يدل عليهما.

وقد كان أبو بكر ﷺ قد أعد الراحلتين اللتين تحملاهما إلى المدينة، ودليلاً ماهراً في الطريق، كما ساعدت أسرة أبي بكر ومنها أسماء وعبد الله في إنجاح هذه الرحلة الميمونة، وقام كل واحد منهما بدور عظيم بمنتهى السرية والمسؤولية، حفاظاً على حياة النبي ﷺ وحماية لهذا الدين الذي أنار قلوبهم وفتح بصائرهم.

ولقد نزل القرآن الكريم يصف حال النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1)

وزيادة في الاحتياط والأخذ بالأسباب فقد سلك الدليل بالنبي ﷺ وصاحبه أبي بكر طريقاً وعرة بعيدة عن مدارك الكفار والمشركين، وهذا نابع عن خبرة ومهارة وفطنة توافرت لهذا الدليل.

وكان ﷺ قد ترك علياً في فراشه، وهو أول فدائي في الإسلام، حينما غادر بيته في مكة، وفي هذا العمل ما فيه من الاحتياط والأخذ بالأسباب وتعمية الأمر على المشركين، كما ساهم عامر ابن فهيرة مولى أبي بكر بإزالة الآثار في طريق الغار من خلال مروره بالغنم ـ من تلك الطريق ـ التي كان يتزود بحليبها النبي ﷺ وصاحبه في الغار، وقام عبد الله بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ بالمهمة الإعلامية، فكان يحضر نادي مكة، ويعود بالأخبار إلى النبي ﷺ، فلما انقطع البحث وهدأت مكة، ويئس الكفار من اللحاق بالنبي ﷺ خرج النبي من الغار متجهاً نحو طريق الساحل

1- التوبة:40.

قاصداً المدينة المنورة؛ دار هجرته التي أراه الله إياها واختارها له، وقد تهيأت فيها الأجواء الملائمة لنشر الإسلام وتوطيد أركانه.

وهكذا يبين الرسول الأكرم ﷺ من خلال هجرته لأمته الإسلامية وجوب الأخذ بالأسباب لنجاح أي عمل، فالأعمال الكبيرة الناجحة تقوم على التخطيط والتنفيذ الدقيق، حتى تصل إلى النتائج المرجوة منها.

وما تقدمت الأمم إلا بأخذ كل الوسائل والأسباب التي تقود إلى هذا التقدم، وما تأخرت أمتنا إلا حينما أخلدت إلى التواكل والكسل، وابتعدت عن التوكل الحقيقي على الله، بعد الأخذ بالأسباب، فلا بد من الأخذ بالأسباب مقرونة بالتوكل على الله والاعتماد على توفيقه، وهذه سنة الله في هذه الأرض ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [1].

وقد أخذ بها رسولنا الأسوة عليه الصلاة والسلام في هجرته، وفي كل مراحل دعوته، فحري بنا نحن المسلمين أن نأخذ بها، ونسير على نهج رسولنا الأكرم ﷺ، حتى نهجر ما نحن فيه من ضعف وتخلف، ونهاجر إلى الله بنية صادقة وعزيمة ماضية، تعيد للأمة الإسلامية مجدها وعزها وقوتها ووحدتها، في ظل هداية القرآن، وهدي نبينا عليه الصلاة والسلام.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- الأحزاب:62.

الفصل الثالث

القدس والأقصى والأسرى		
9	يبين أهمية بيت المقدس	40
10	يربط بين المسجد الأقصى المبارك والمسجد الحرام	43
11	يحثنا على السكن في القدس	47
12	يحث على السكن في القدس	50
13	يُرشد إلى سبل ربانية في مواجهة محنة المسجد الأقصى المبارك	54
14	يرسخ الإصرار على حق العودة	59
15	يحث على إحياء الأرض وزراعتها	63
16	يوصي بالأسرى خيراً	68

حرص صحابة الرسول ﷺ، على معرفة فضل الأماكن وأهميتها في حياة المسلم، من حيث ثواب الأعمال، ومكانة هذه الأماكن عند الله تعالى، وخصوصيتها في العقيدة الإسلامية، ومسار التاريخ الإسلامي.

ولذلك تجدهم يتذاكرون في فضل هذه الأماكن ويسألون رسول الله ﷺ، نبيهم ومعلمهم وقائدهم الذي يجيبهم عما يسألون بوحي معصوم لا يتطرق إليه الخلل أو النقصان، بل هو النص الشافي في سياق الجواب أو البيان أو الاستذكار، من ذلك ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال:"تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أيهما أفضل: مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو مسجد بيت المقدس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" صلاة في مسجدي هذا، أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى، وليوشكن أن لا يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعا"(1).وهذا الحديث الشريف من أعلام نبوته ﷺ، ولعلنا نعيش هذه الحقبة التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أصبح المسلم اليوم محروماً من زيارة المسجد الأقصى وأداء العبادة فيه، بعد أن حال الاحتلال بين المدينة المقدسة وبين أبناء هذه الأرض المباركة، بما أقامه من جدار لفصل القدس عن سائر الأرض المباركة، ومنع السكان من أبناء هذه الديار من الوصول إلى المدينة للصلاة في مسجدها تحت ذرائع مختلفة؛ كالأمن، أو اختلاف الإقامة، وغير ذلك من الحجج الواهية، التي لا تقوى على الوقوف أمام الحق الساطع والبيان الواضح، لأنها تفرض بغطرسة القوة وسطوة الاحتلال.

إن أجيالاً من أبناء المسلمين في هذه الديار ولدوا ونشأوا وشبوا، ولم يتمكنوا من زيارة المسجد الأقصى بسبب هذه الحواجز والموانع التي يقيمها الاحتلال الاسرائيلي، علاوة على آلاف الملايين من المسلمين الذين لا يستطيعون شد الرحال لزيارة المسجد الأقصى بسبب الأوضاع القائمة والأحوال السائدة، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

1ـ أخرجه الحاكم النيسابوري،كتاب المستدرك على الصحيحين، كتاب الملاحم والفتن 554/4.

كما أن أبناء القدس نفسها أصبحوا يعيشون في أحوال صعبة جراء الإجراءات والممارسات الاحتلالية التي يتعرضون إليها من مضايقات في مصادرة الأراضي، وبناء المستوطنات، في الوقت الذي لا يسمح فيه لأبناء المدينة بالبناء بحجة عدم التنظيم، أو الأراضي الخضراء، أو الحدائق العامة، حتى أصبح المقدسي لا يجد مسكناً يأويه ويأوي أبناءه، مما اضطر الكثيرين إلى مغادرة المدينة للسكن خارجها، وما يترتب على ذلك من فقد حق الإقامة، ومن ثم المنع من دخول المدينة، إلا بتصريح من الاحتلال .

وهكذا أصبح ابن المدينة يشاطر أخاه من أبناء هذه الأرض المباركة الشوق لدخول المدينة وزيارة مسجدها الأقصى، ويتمنى لو أنه يملك مقدار حبل فرسه بمال الدنيا، ليرى بيت المقدس، ويصلي في مسجدها المبارك، الذي يتضاعف فيه ثواب الأعمال، وصدقت يا سيدي يا رسول الله، وأنت تخترق بنبوءتك حجب الزمان والمكان، مخبراً أبناء الأمة بأن من ملك مقدار حبل فرسه من الأرض في القدس ليرى منها المسجد المبارك، هو خير له من الدنيا وما فيها.

كما أن هذا الحديث الشريف يشير إلى الحال الذي وصلت إليه أمتنا الإسلامية في أيامنا هذه، فقد غلب الأعداء على ديار الإسراء والمعراج، وعلى كثير من ديار المسلمين بسبب ضعف المسلمين وهوانهم على الناس، وتفرق كلمتهم وابتعادهم عن هدايات الله في كتابه الكريم، وهدي رسولهم في سنته المطهرة، حيث الدعوة إلى وحدة هذه الأمة، واتباع الهدي الذي أنزل على رسوله، وبه كنا خير أمة أخرجت للناس، ولا نكون كذلك إلا به، فنحن كما قال الفاروق عمر رضي الله عنه:" قوم أعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله".

وحال الأمة وواقعها أكبر شاهد ودليل على هذا القول من هذا الصحابي الجليل الذي أدرك بملء جوانحه أن عزة المسلمين تكمن في دينهم وعقيدتهم، وأن منارتها هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

كما يشير الحديث الشريف إلى تلك الروح الإيمانية والعاطفة الدينية التي تنبعث في نفوس المسلمين، حيث يتحرقون إلى رؤية بيت المقدس، ويتمنى أحدهم أن يكون له مقدار حبل فرسه من الأرض ليرى بيت المقدس.

وهذه بداية انبعاث الهمة في نفوس المؤمنين التي تبشر ـ بإذن الله ـ بالعز المبين، الذي يقشع

غشـــاوات الباطل والظلم، ويقيم من المستضعفين أئمة وأمة تدعو إلى الخير، وتقيم العدل والحق، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (1)

كما بين الحديث الشريف فضل المسجد الأقصى بقول الرسول ﷺ:"ولنعمّ المصلى هو" فهذا ثناء من النبي ﷺ على مكانة المسجد الأقصى، كيف لا؟ والمسجد الأقصى هو قبلة المسلمين الأولى، ومسرى ومعراج نبيهم عليه الصلاة والسلام، صلى فيه إماماً بالأنبياء، وهو ثالث ثلاثة مساجد تشد إليها الرحال بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف. كما أنه ثاني مسجد يوضع في الأرض بعد المسجد الحرام .

فعلينا نحن المرابطين في هذه الديار، وبخاصة أبناء المدينة المقدسة سدنة المسجد الأقصى المبارك وحراسه أن نتمسك بهذا الفضل والخير الذي منحنا الله إياه بسكنى بيت المقدس والتشرف بالصلاة في مسجدها، في الوقت الذي يتمنى فيه المسلم أن يكون له مقدار حبل فرسه في القدس ليرى المسجد الأقصى مقابل الدنيا وما فيها .

وهذه إشارة إلى فضل هذه الديار، وخيرية أهلها، فلنحافظ على هذا الفضل وهذا الشرف العظيم، فلا نفرط بأرض أو عقار في بيت المقدس، ولو بمال الدنيا كله، فالدنيا إلى زوال مهما طال فيها الأمل، وإن الدار الآخرة لهي دار القرار، قال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (3)

كما نذكر الأمة الإسلامية، التي ما زالت سادرة في خلافاتها وحروبها الداخلية والخارجية، أن تفيق من سباتها، وتجمع كلمتها حول كلمة الحق والتقوى لتوحد صفها، وتعيد عزتها وتنهض بحفظ أماناتها، وفي مقدمتها تحرير القدس ومسجدها الأقصى المبارك، حتى يتمكن كل مسلم من زيارته والنظر إليه في ظل عزة الإسلام ورفعة المسلمين، وما ذلك بعزيز على أمة ربها الله، ودستورها كتابه العزيز، وقائدها وأسوتها رسولنا الكريم سيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

1- القصص:5.

2- الضحى:4.

3- العنكبوت:64.

شاء الله تعالى أن يسري بنبيه الكريم محمد ﷺ، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في فلسطين من الشام، ليكون نقطة الانطلاق في عروج النبي ﷺ إلى السماوات العلا، ولو كان المقصود صعود من الأرض إلى السماء فحسب، لجرى ذلك من مكة مباشرة دون الحاجة للذهاب إلى المسجد الأقصى المبارك، فالحدث يحمل في طياته دلالات تشير إلى عمق الصلة التي يرتبط بها كل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى بالآخر، فالأول قبلة المسلمين، والثاني قبلتهم الأولى، والاثنان من بين ثلاثة مساجد انحصر شد الرحال إليها، لقول الرسول ﷺ، " لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"[1]، وبُني الاثنان في أزل الزمان، وما كان بين بناء الأول والثاني سوى أربعين سنة، لحديث أبي ذر الغفاري قلت: "يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ:الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ"[2].

وجاء حدث الإسراء ليؤكد الصلة بين المسجدين، التي نص عليها مطلع سورة الإسراء، فقال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾[3]. فهو رباط مؤكد وموثق من لدن الحليم الخبير سبحانه وتعالى، وشمله كلام رب العالمين في آيات التنزيل، التي لا يأتيها باطل، ولا يتطرق إليها شك، ولن يعتريها خلل أو خطأ إلى يوم الدين، مما يعني أن التفريط بأحدهما – لا

1- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.
2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً.
3- الإسراء:1.

قدر الله - سيكون منفذاً للتفريط بالآخر، فهل غابت عن أذهان المسلمين هذه الحقيقة، حتى أضحت قضية المسجد الأقصى في ذيل قضاياهم، أو مغيبة عن اهتمامهم وعنايتهم.

ففي مقابل محاولات المس بوجود المسجد الأقصى وقدسيته، بوسائل الحصار والتدنيس ومختلف صور الاعتداء، تبرز مواقف من المسلمين باهتة أو متجاهلة أو متهاونة بشأن ما يجري من المخططات التي تستهدف وجود هذا المسجد المبارك، والتي نفذ بعضها على أرض الواقع، وبعضها الآخر في طريقه إلى التنفيذ، فهو مستهدف بالحفر تحت أساساته، وتمنع عنه الصيانة والإعمار، ويقلص عدد المسموح لهم بزيارته والصلاة فيه، ومضايقة رواده على أبوابه، بهدف ثنيهم عن عمارته بالعبادة صلاة واعتكافاً، ومدارسة لكتاب الله تعالى فيه.

ومن جوانب الارتباط بين المسجدين قضية القبلة، فمعلوم أنها كانت في بداية الدعوة الإسلامية إلى بيت المقدس، ولم تتحول إلى مكان آخر سوى البيت الحرام في مكة، وكان يمكن أن تبدأ من مكة وتستمر، أو تتواصل من بيت المقدس دون أن تحول إلى مكة، أو أن تكون إلى جهة غيرهما، لكن ما حدث من استقبال بيت المقدس في الصلاة، ثم التحول إلى بيت الله الحرام في مكة لدليل واضح على عمق الصلة بين المسجدين، وقد أنزل الله آيات قرآنية عدة تتحدث عن هذه القضية، فيقول تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وشكلت خطوة التحول بالقبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام امتحاناً للناس، فالذي خضع لله مسلماً مؤمناً تجاوز الامتحان بنجاح، أما المغرض أو المتربص وضعيف الإيمان ففشل في الامتحان، وسقط في مهاوي التشكيك والطعن في حكم الله وأمره، يقول الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي

1- البقرة : 144.

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1]، فارتباط المسجد الأقصى بالمسجد الحرام، موطد بالعقيدة والقرآن وعمود الدين الصلاة، وهو إلى جانب ذلك معزز بالتاريخ وأحداثه.

وكان للصلاة دور في الربط بين المسجدين، فبالإضافة إلى التوجه بها إلى المسجد الأقصى، تم الانتقال إلى الكعبة المشرفة قبلة المسلمين في صلاتهم، فإن الظرف الزماني والمكاني الذي فُرضت فيه الصلاة، يحمل في طياته دلالات على عمق الصلة بين المسجدين الشريفين، فهي فرضت خلال معجزة الإسراء والمعراج، التي شكل المسجدان محورين رئيسيين فيها، ولم تكن بحال من الأحوال مجرد محطات عابرة، فالأمر رباني، والفعل إلهي، وجهاته عظيمة، فهي الأرض والسماء، ومكة المكرمة، وبيت المقدس، والكعبة البيت الحرام، والمسجد الأقصى، وخاتم النبيين محمد ﷺ، ورسل الله السابقون، والملائكة المطهرون، والمعجزات الربانية، وفريضة الصلاة، بما تمثله من أهمية؛ كونها عمود الدين، وأحد أهم أركان الإسلام العظيم.

وها هي ذكرى الإسراء والمعراج تحل بنا سنة بعد أخرى في ظل استهداف المسجد الأقصى، ومحاولة النيل منه، مقابل تقصير المسلمين في أداء دورهم المنوط بهم تجاهه، فهل يرجع المسلمون إلى رشدهم، ويعيدون إلى مسجدهم الأقصى الرعاية التي يستحقها منهم بموجب إيمانهم ودينهم.

وفي كل الأحوال والظروف، ستبقى بارقة الأمل بنصر الله، وانفراج الكرب، راسخة في قلب المؤمن ونفسه، لأنه على يقين بأن الله تعالى ناصره، ولو بعد حين، فالعاقبة للمتقين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

فلن يزعزع يقين المؤمن المرابط في أرض الإسراء والمعراج ما يجد ويرى من كبر الكيد الذي يحاك ضد الوجود الإسلامي والعربي في هذه البلاد الطاهرة، التي يخطط بدهاء لإحلال الوجود الصهيوني فيها مكانه، ومن أحدث الخطط التي أعلن عن حبكها في هذا الصدد، ما أطلق عليه

1- البقرة:142.

2- هود:49.

خطة تقسيم المسجد الأقصى، التي تأتي في سياق عمل الاحتلال المبرمج للمس بمسرى النبي محمد، رسول الإسلام، وخاتم النبيين ﷺ، فلم يعد خافياً على أحد أن الاحتلال الإسرائيلي قد تجاوز مراحل التخطيط، ودخل خطوات التنفيذ العملية لوضع اليد على المسجد الأقصى، وتحقيق الحلم الصهيوني بإقامة الهيكل مكانه.

ومن أنكر الأمور أن تلك الخطط، وذلك التنفيذ يُمارس على مرآى ومسمع المسلمين شعوباً ومسؤولين، ولا يجد منهم غوثاً يوازي فظاعة الحدث.

فاللهم إليك نشكو ضعف القوة، وقلة الحيلة، والهوان على الناس، فأنت تهب الملك لمن تشاء، وتنزعه ممن تشاء، بيدك الأمر، ولا راد لقضائك، فارفع عن مسجدك الأقصى الظلم، ورد الكيد عنه، واصرف عنه السوء، ليبقى عنوانا لتوحيدك، وملاذاً للمصلين والعاكفين والراكعين والساجدين من عبادك المسلمين، الذين شهدوا لك بالوحدانية، وللنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة، فأنت ولي ذلك، والقادر عليه، لا إله إلا أنت سبحانك، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

قال رسول الله ﷺ: (لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

في معرض الحديث عن الأوضاع الجارية في بيت المقدس هذه الأيام، حيث الحصار الشامل للمدينة المقدسة، بنصب حواجز الاحتلال العسكرية والشرطية على مداخل المدينة البعيدة، ومن ثم تطويق بلدتها القديمة بمحاصرة أبوابها وشوارعها وحواريها وأزقتها، ونشر الأعداد الكثيرة من جنود الاحتلال؛ بقبعاتهم القبيحة، متعددة الألوان، التي تعكس بشاعة وجه الاحتلال وقبحه، من خلال تعامله مع أبناء المدينة المقدسة الذاهبين إلى مدارسهم، أو إلى متاجرهم، أو حتى إلى قضاء حوائجهم واحتياجاتهم.

هذه الحواجز العسكرية والشرطية التي تطوق بوابات المسجد الأقصى المبارك، وتدقق في هويات الداخلين إليه من أبناء المسلمين لأداء الصلاة، فلا تسمح لمن يقل عمره عن خمسين سنة من الدخول إلى المسجد لأداء الصلاة، في تحكم بغيض ومقيت، واعتداء سافر على حرية العبادة، وحرية الوصول إلى أماكنها بيسر وسهولة، وتخرج سلطات الاحتلال الإسرائيلي بعد هذه الجرائم كلها لتقول للعالم: إنها تتخذ هذه الإجراءات التعسفية محافظة على الأمن، ومنعاً للإخلال بالنظام العام، وواقع الحال مغاير لهذا كله.

إن المسلمين من أبناء هذه الديار يعلنون بشكل واضح وصريح رفضهم لأي مساس بحرمة المسجد الأقصى وقدسيته من قبل الجماعات اليهودية المتطرفة، التي تدعو جهاراً نهاراً بالصعود إلى باحات المسجد الأقصى لممارسة طقوس دينية خاصة باليهود، خلال احتفالاتهم بعيد المظلة عندهم، بل أبعد من هذا، وهو ما يحلمون به من إقامة الهيكل المزعوم الثالث على جزء من أرض المسجد الأقصى، أو على أنقاضه لا سمح الله، وهذه دعوة لم تعد في الخفاء، بل هناك كثير من الجمعيات والجماعات اليهودية التي تعمل وبشكل متواصل، وتتحين الفرص لتنفيذ هكذا مخططات عدوانية وإجرامية بحق المسجد الأقصى المبارك، الذي جعله الله مسجداً خالصاً للإسلام والمسلمين، وقرر مسجديته في محكم كتابه العزيز وربطه برباط عقائدي بالمسجد الحرام في صلب عقيدة المسلمين، فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ

الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [1].

كما أكرم الله المسجد الأقصى وأمة المسلمين بأن جعله قبلتهم الأولى، وثاني مسجد يقام في الأرض، لحديث أبي ذر الغفاري ﷺ قال:"قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى؟ قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ، ثُمَّ قَالَ: حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ"[2]

وفي الآية الكريمة بخصوص القبلة، يقول تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [3]، فتحول المسلمون عن القبلة الأولى إلى القبلة الثانية، بعد أن كانوا توجهوا إلى المسجد الأقصى ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وقد جمعوا بين القبلتين، وحازوا ثواب الفضيلتين، بفضل اتباعهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وما كان الله ليضيع إيمانهم، ولكن محصه وثبته واستخلصه، فهو القائل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4]

ومن منطلقات الإيمان هذه حَرَصَ المسلمون على أن يسألوا رسول الله ﷺ عن الأماكن التي يسكنون فيها، أو يهاجرون إليها، فكان الصحابي الجليل ذو الأصابع ﷺ من هذا النفر الذي سأل الرسول ﷺ، وهو يرى أن البقاء بعد رسول الله ﷺ فيه امتحان وابتلاء لإيمان المؤمن ـ ولعل فيما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ من ردة دليل على ذلك ـ ولهذا حرص هذا الصحابي ﷺ أن يتوثق لحياته فيما يحفظ عليه إيمانه، فقال سائلاً الرسول ﷺ:"يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ ابْتُلِينَا بَعْدَكَ بِالْبَقَاءِ أَيْنَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَنْشَأَ لَكَ ذُرِّيَّةٌ يَغْدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَيَرُوحُونَ"[5]

1- الإسراء:1.

2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ووهبنا لداود سليمان نعم العبد.

3- البقرة: 144.

4- البقرة:143.

5- مسند أحمد، أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين، حديث ذي الأصابع ﷺ.

وأي ابتلاء أكبر؟ وأي بلاء أعظم مما تواجهه الأمة؟ وبخاصة أبناء بيت المقدس في هذه الأيام العصيبة التي يصادر فيها الاحتلال أرضهم لبناء المستوطنات، ويخرجهم من بيوتهم لاحلال المستوطنين مكانهم، ويهدم بيوتهم، ويجرف أرضهم لإقامة الحدائق الأثرية أو التاريخية مكانها.

لا بل راح الاحتلال البغيض ينازعهم حقهم الديني في مكان عبادتهم ومسجدهم الأقصى من خلال الاعتداء عليه، واقتحام باحاته من قبل سوائب الاحتلال، وقطعان المستوطنين الذين تتصدى لهم ذرية المسلمين في هذه الديار لتردهم عن مسجدها، وتدفع البلاء عنه وعنها، ولا معين لها، ولا ناصر إلا الله تعالى الذي لا يغفل عما يعمل الظالمون.

إنها ذرية المسلمين اليوم الذين استجابوا لوصية رسول الله ﷺ فلازموا بيت المقدس وأكناف بيت المقدس سكناً وعيشاً، وتربوا وربوا ذريتهم على الإيمان والإسلام وحب المسجد الأقصى المبارك، فترددوا على مسجدهم في الغدو والآصال، وفي الصباح والمساء، وفي جميع الأحوال والأوقات، يعمرونه بالعبادة، ويعتكفون فيه للصلاة، وذكر الله، وتلاوة كتابه العزيز، ومدارسة العلم.

وهاهم أبناء ذرية المسلمين الذين اختاروا أرض بيت المقدس وأكنافها لسكنهم ومعيشتهم يعتكفون في المسجد الأقصى المبارك، وقد عمر الإيمان قلوبهم، وتمكن حب المسجد الأقصى من نفوسهم، يغدون إليه ويروحون في هذه الأوقات العصيبة، معلنين لكل الدنيا بأنهم أبناء المسلمين الذين بشرهم رسول الله ﷺ بهذه الذرية الطيبة الصالحة التي تغدو وتروح إلى المسجد الأقصى المبارك، درة بيت المقدس وقلب فلسطين ومهوى أفئدة المسلمين في هذا العالم.

وكأني بلسان حال كل المرابطين في هذه الديار المباركة يهتف بصوت واحد: لبيك يا رسول الله، فقد اخترنا بعدك أن نكون المرابطين في بيت المقدس وأكنافها، وأن نغدو وذريتنا ونروح إلى مسجدها الأقصى المبارك، كما أمرتنا ووجهتنا ونصحتنا، فأنت قدوتنا وأسوتنا، ولن نحيد عن هديك وسنتك، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وصلى الله وسلم وبارك عليك، وعلى آلك الطاهرين، وأصحابك الغر الميامين، ومن تبعك وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

في الخامس من حزيران قبل اثنين وأربعين عاماً، سقطت القدس في أيدي المحتلين الصهاينة، هذه المدينة المقدسة المباركة التي حوت ثالث أقدس مقدسات المسلمين في هذا العالم بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، هذه المدن ومقدساتها التي حافظ المسلمون عليها، وعلى أقطارها منذ بداية انبلاج نور هذا الدين العظيم الذي سطع في بطاح مكة المكرمة، وهاجر به المسلمون الأوائل إلى المدينة المنورة لتكون مهد الدولة وانطلاق الدعوة إلى سائر أرجاء هذه الدنيا، وليصل هذا النور المبين إلى القدس على أيدي الصحابة الفاتحين الذين نفذوا القرار الرباني بإسلامية هذه الديار ومسجدية مسجدها الأقصى المبارك، الذي ربطه الله تعالى ببيته العتيق ومسجده الحرام في مكة المكرمة، بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [1].

وفي مرحلة ضعف اعترت الأمة، فغفلت عن واجبها، سقطت القدس أسيرة الاحتلال الفرنجي فترة من الزمن، إلى أن قيض الله لها ناصراً ومحرراً، إنه صلاح الدين والدنيا، الذي أعاد للمسجد بهاءه، وللمنبر رسالته، ومسح الألم والحزن عن وجه المدينة، لتعود إلى دورها، وتؤدي مهمتها كمحور لمعجزة الإسراء والمعراج، ردحاً من الزمن غير قليل.

ويعتري الأمة الضعف والهوان، فتسقط القدس ثانية في أيدي المحتلين، الذين أعملوا منذ اليوم الأول للاحتلال معاول هدمهم في حواريها، ضمن مخطط يهدف إلى طمس معالمها الإسلامية والحضارية في حملة من التزوير والتشويه وإنكار الحقوق والحقائق، تحت سمع العالم وبصره الذي اقتصر جهده في المحافظة على المدينة وأهلها الشرعيين بإصدار قرارات الأمم المتحدة ومجلس

1- الإسراء: 1.

أمنها مع وقف التنفيذ، في الوقت الذي رعى فيه الاحتلال، ويرعاه طوال هذه المدة من احتلال القدس وأرضها المباركة.

وإذا ما عدنا إلى أمة القدس حاملة الأمانة، وصاحبة الولاية، وجدناها دون المستوى المطلوب للنهوض بأمانتها، لا بل في موقع من الضعف والفرقة والخصومة والتنازع، وتعدد الأجندات والأغراض التي لا تقرب يوم الحرية والتحرير للقدس ومقدساتها، رغم قوة نداء الواجب، وصيحات الاستغاثة المنطلقة من رحاب المسجد الأقصى المبارك.

وفي مثل هذه الأحوال والأجواء من الشدة والبلاء يأتي سؤال صاحب رسول الله ﷺ قال:"قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ ابْتُلِينَا بَعْدَكَ بِالْبَقَاءِ، أَيْنَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَنْشَأَ لَكَ ذُرِّيَّةٌ يَغْدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، وَيَرُوحُونَ"[1].

وها نحن أهل بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وقد ابتلينا بالبقاء بعد سلفنا الصالح، وكان قدرنا أن نكون حلقة في سلسلة الرباط الممتدة في هذه الديار المباركة التي نكبت بهذا الاحتلال البغيض، الذي يعمل جاهداً لتغيير هوية الأرض، وتهجير أهلها بشتى الوسائل ومختلف الذرائع.

إننا نحن أهل هذه الأرض، يقع علينا واجب كبير ومسؤولية جسيمة في استمرار هذا البقاء والوجود العربي والإسلامي في هذه الديار، إلى أن يهيئ الله أسباب القوة والعزة التي تعيد لها مسجدها، وتضمّد جراحاتها، وهذه مسؤولية الأمة بأسرها، التي حمّلها الله أمانة المحافظة على هذه الديار، وشرفها بسدانة مسجدها الأقصى ورعايته بقرار رباني من فوق سبع سماوات، يتلونه في سورة من سور الذكر الحكيم، وآية من آيات القرآن الكريم.

وعودة إلى حديث المصطفى ﷺ ننهل من معانيه، ونتأسى بتوجيهاته الشريفة، عسى أن نكون نحن وأبناؤنا الذرية التي تغدو إلى هذا المسجد المبارك وتروح، ما دمنا قد اخترنا البقاء والرباط في هذه الديار الطيبة، أرض الرسالات ومهد النبوات، ومسرى رسول الله ﷺ ومعراجه إلى السماوات، الأرض التي أكرمها الله وباركها، فجعلها بوابة الأرض إلى السماء، وفرض من فوق

1- مسند أحمد، أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين، حديث ذي الأصابع رضي الله تعالى عنه.

سمائها علينا خمس صلوات في العمل، خمسين في الأجر، وجعل هذه الفريضة عمود الدين، ومعراجاً للمؤمنين، وهم يقفون بين يدي الله تعالى، يناجونه، ويتضرعون إليه، ويطلبون عفوه ورضوانه.

فهنيئاً لمن صبر واحتسب، وعقد العزم على الرباط والثبات في هذه الأرض، ورزقه الله ذرية صالحة تغدو إلى هذا المسجد وتروح.

وفي هذا الهدي الشريف توجيه واضح إلى وجوب الاهتمام بتربية الأبناء وتنشئتهم على أسس الدين والفضيلة، إذ بدون التربية الصالحة، وغرس أسس العقيدة والفضيلة في النفوس، لا يتصور تردد الجيل على المسجد في الغدوة والروحة.

وهذه إشارة واضحة إلى وجوب الاهتمام بهذه الذرية لتنشأ على خلق الإسلام وتعاليمه، وبخاصة في ظروف الاحتلال، الذي يعمل على تدمير أخلاق الجيل وإبعاده عن مكامن العزة، حتى يسهل عليه فرض مخططاته الإجرامية وتنفيذها بإحكام السيطرة على الأرض وتهويدها.

إن واجب الرباط في هذه الأرض يدعونا إلى مزيد من الجهد والعطاء في تربية الأبناء وتوجيههم وتحصينهم بمكارم الأخلاق، حتى يواجهوا فتن الاحتلال بصلابة المؤمن وثبات المرابط، مشغلين أوقاتهم بالتردد على المسجد لأداء فريضة الصلاة، وما ينفعهم في شؤون دينهم ودنياهم.

كما يوجب الرباط علينا في هذه الديار أن نكون متعاونين، متحابين، متراصين في صف واحد، نحو هدف واحد، هو حرية هذا المسجد وديارة المباركة، لننعم نحن والمسلمون كافة بالتردد عليه في الغدوة والروحة، وسائر الأوقات، محققين قول رسول الله ﷺ فيما روته ميمونة، مولاة النبي ﷺ قالت: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ : أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَتُهْدِي لَهُ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ أَتَاهُ" (1)

1- سنن ابن ماجه ـ اقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس.

يا أهلنا في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وقد يسر الله لكم الوصول إلى المسجد الأقصى المبارك، فاحرصوا على إعماره بالصلاة والاعتكاف فيه ما استطعتم، واشغلوا أنفسكم فيه بالطاعة والذكر والتلاوة، فإن مئات الملايين من المسلمين يتحرقون شوقاً لأداء ركعتين من الصلاة فيه، أو اكتحال عيونهم برؤيته، فاحرصوا على أن تكونوا الطليعة المتقدمة لأمتكم في الغدو والرواح إلى هذا المسجد المبارك، ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1]، وليكن قول الله تعالى رائدكم ودستوركم، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] وليكن الرسول الأسوة ﷺ أسوتنا في هذا الرباط إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3].

وصلى الله وسلم وبارك، على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

القدس

مسرى النبي ﷺ، ومعراجه إلى السماء، وقبلة المسلمين الأولى، ومهوى أفئدة المؤمنين، والأرض التي بارك فيها وما حولها، وهي الأرض الطيبة.

1- الأنفال:46.

2- آل عمران:200.

3- الحج:40.

يتعرض مسلمو بيت المقدس وأكنافه ومسجدهم الأقصى المبارك إلى مزيد من الكيد والاضطهاد، وهم عزل إلا من إيمانهم بالله، الذي وعدهم بأجر الصبر على ما يجدون من معاناة في سبيل تمسكهم بحقهم وثوابتهم ومبادئهم، آخذين بهدي الله لهم، حيث أمرهم سبحانه بالصبر والمرابطة في سبيله، ومغالبة أعدائهم بالمصابرة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فهم على ثغر مهم، والواجب يقتضي منهم ملازمته لدفع الكيد عنه، بتواجدهم وصلاتهم فيه، وبتكثيف شد رحالهم إليه، مسترشدين بهدي أسوتهم ﷺ، إذ عيّن مسجدهم الأقصى واحداً من أعظم ثلاثة مساجد في الإسلام، والتي تقصد بشد الرحال إليها تعبداً، وطلباً لمضاعفة الأجر والثواب، في تمييز واضح لها عن غيرها من بقاع الأرض وسائر المساجد، فيقول ﷺ: " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى "[2].

وبين ﷺ، للمؤمنين منزلة المرابطين منهم، الذين يشكلون دروعاً بشرية، تحمي ثغور أوطانهم، ومقدساتهم، فقال عليه الصلاة والسلام:"رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا"[3].

بل بين لهم أسوتهم، عليه الصلاة والسلام، أن رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، ورباط شهر خير من صيام الدهر، فقال:"رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ "[4].

وتأسياً بهذا الهدي النبوي الشريف، فإن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حين سئل أيهما أحب إليه، الإقامة بمكة أم الرباط في الثغور؟ فقال: الرباط أحب إليّ. وقال: ليس عندنا شيء من الأعمال الصالحة يعدل الجهاد والغزو والرباط.

1- آل عمران: 200.

2- صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

3- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

4- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله.

وقد عبر مسلمو هذه الديار المباركة خلال جمع رمضان الماضي عن عمق ارتباطهم بمسرى نبيهم ﷺ، وقبلتهم الأولى، وثاني مسجد أقيم على الأرض، وظهرت صور هذا الارتباط جلية في تزاحم من سنحت لهم فرصة شد الرحال إليه في تلك الجمع، فتقاطروا من كل حدب وصوب متحدين الصعاب، ومتحملين المشاق، في إصرار تطوعي قلّ نظيره للوصول إلى مسجدهم والصلاة فيه، وإخماد بعض نار شوقهم إليه، بعد أن حرموا منه، وهم على مرمى حجر منه، بفعل الظالمين، الذين ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (1).

وحمل مشهد تدفق المصلين والمصليات إلى المسجد الأقصى رسائل عديدة، من أبلغها ما تلقاه المحتل الغاصب، صاحب القيود والحواجز الظالمة والجدر العنصرية، من تأكيد وإصرار أبناء أرض الرباط على التمسك بقدسهم وأقصاهم ومسرى نبيهم، فإن حالت الجدر بين أبدانهم وبينه، فهو في قلوبهم، ويفدونه بدمائهم وأرواحهم، وكيف لا يكون منهم هذا الحب لمسجدهم والتعلق به؟ وقد ارتبط بعقيدتهم، برباط سماوي، عبرت عنه فاتحة سورة الإسراء، فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (2).

ويعلم أبناء هذه الديار المباركة أن مسجدهم الأقصى مستهدف، والعيون المتربصة به مفتوحة نحوه، لا تكل ولا تمل من تَحَيُّن الفرص لانتزاعه من أيدي المسلمين، وما يعلن من الأهداف والخطط والإجراءات بهذا الصدد، أقل بكثير مما يخفى ويجري التخطيط له في جنح الظلام، وإن ما يَرشح عما يخطط وراء الكواليس للمسجد الأقصى من كيد، هو أدهى وأعظم، من الإجراءات الكيدية والاعتداءات الظالمة المعلنة، مما يتطلب المزيد من اليقظة والالتفاف حول المسجد الأقصى، والمرابطة فيه لمن تسنح لهم الفرص والظروف والإمكانات لذلك.

فالمواطنون في أرض الإسراء عزل سوى من عقيدتهم الصلبة ويقينهم بالله، ومن ذلك انطلقوا لشد الرحال إلى المسجد الأقصى لما رُفعت بعض القيود التي تحجزهم عنه، متضرعين إلى الله أن يحمي

1- البقرة: 114.

2- الإسراء: 1.

مسجدهم من كل سوء، وأن ييسر لهم دوام الصلاة فيه، غير أن عموم المسلمين في بقاع الأرض وأقطار الدنيا مطالبون شعوباً وحكاماً، أفراداً وجماعات، ببذل أقصى طاقاتهم لحماية هذا المسجد بصفته قبلتهم الأولى، ومسرى نبيهم.

ومن يقرأ القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد الأمين ﷺ، يجد إنكاره لحال التقصير في نصرة الشعب المرابط على ثغور أرض الإسراء والمعراج، فالله تعالى ينكر على المؤمنين التلبس بهذا التقصير، فيقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (1).

ويقول الرسول ﷺ:"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ..."(2)،وفي رواية:"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَخُونُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ ... "(3).

فلن يُعذر المتخلفون عن أداء واجبهم نحو دينهم وإخوانهم ومقدساتهم، وأهل القدس وما حولها من أرض الرباط سيجزيهم الله أجر معاناتهم وصبرهم ورباطهم بإذن الله، فهو القائل سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (4) .

وكل المخلصين الصادقين من أبناء هذه الأمة يبرأون إلى الله من أن يكون فيهم أو منهم من يخذل المسجد الأقصى، أو يفرط بجزء من ساحاته ومساطبه وبنائه وشجره وحجره، فهو خط أحمر، لن

1- النساء: 75.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

3- سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم.

4- التوبة: 120.

يتجاوزه بإذن الله أحد معتبر الرأي والمقام في هذه الأمة، ولن يفكر حاكم ولا محكوم من أمة الإسلام أن يفرط فيه أو يتنازل عن شبر أو حفنة تراب منه، مهما بلغت الخطوب، وتفاقم الحصار.

وحتى تجري الأمور في إطارها الصحيح المنسجم مع روح الإسلام ومبادئه وتشريعاته وقيمه، لا بد أن تنطلق قيم صبرنا ومصابرتنا، وجهود مرابطتنا من عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فالمؤمن يحتسب حياته لله، فإن أصابته سراء شكر، وإن انتابته ضراء صبر، منطلقاً من إيمانه بأن النصر بيد الله، يهبه لمن يشاء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (1).

فالمطلوب المؤكد منا أن نحفظ شرع الله ودينه، حتى يحقق لنا الله ما وعدنا من النصر العزيز بإذنه، وهو سبحانه القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (2) فمن بدهيات قبول الأعمال عند الله، صبراً كانت أم مرابطة أم غير ذلك من أعمال الخير، إضافة إلى انطلاقها من العقيدة الصحيحة، أن تقترن بالتقوى، وهي اسم جامع لكل ما يحب الله ويرضى عنه من الأقوال والأعمال، فمن يتق الله يجعل له مخرجاً، والله عقد صفقة بيع وشراء مع عباده المؤمنين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (3).

ودون الجنة تهون الصعاب، فهي أسمى وأعظم مبتغى ومراداً، فلا غرابة أن نجد الصحابي عمير ابن الحمام وهو يجاهد مع رسوله ﷺ، فيستكثر التمهل لأكل تمرات، فيلقيها من يده، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين:"قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بَخٍ بَخٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا

1- آل عمران: 160.

2- محمد: 7.

3- التوبة: 111.

حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ"[1]، وروى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أنه قال: " أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"[2].

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن إصابة المؤمنين بالجراح والأذى يحتمل الابتلاء، أو رفع الدرجات، أو المعاقبة على تنكب درب الله، والتذمر من استبطاء النصر، يتوافق مع استعجال البشر للأمور في غير أوانها، وهذا الاستعجال يتنافى مع الحقيقة الإيمانية المتمثلة في أن الله يفعل ما يشاء، وكل شيء عنده بمقدار، فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ:" شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ "[3].

أعاذنا الله من أن نكون ممن عرف الله وعصاه، وهدانا سبحانه لما يحب ويرضى من الأقوال والأفعال والمواقف، وجعلنا ممن ربح البيع، وصدق الله ما وعده، عملاً بهدي محمد وصحابته البررة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم، وعلى آله الكرام، وعلى من سار على هديهم بإحسان إلى يوم الدين، أفضل الصلاة وأتم التسليم.

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

2- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في صفة أواني الحوض.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

لما ضاق الوطن بالرسول ﷺ، وصحبه، فاضطهدهم الظلاميون في أنفسهم وأموالهم ودينهم، خرجوا من موطنهم مكة مهاجرين، فوجدوا في المهجر الرعاية والمناصرة، لكنهم لم ينسوا وطنهم، ومهبط وحيهم، ومثل الرسول ﷺ حالهم، حين خاطب مكة، وهو يهاجر منها مكرهاً، فعن أبي هريرة، قال: " وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْحَزْوَرَةِ، فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا خَرَجْتُ "[1].

وفي مثل هذا اليوم الخامس عشر من شهر أيار منذ عام 1948م، ما زالت تمر بأمتنا الإسلامية وشعبنا الفلسطيني ذكرى النكبة، بما تمثله من سقوط للأرض الفلسطينية في يد المحتل الصهيوني، وما تبع ذلك من اضطهاد لأبناء هذه الأرض وأهلها، الذين عملت فيهم آلة القتل والتدمير أعمالها الفظيعة والمفزعة، مما اضطر بعض أهلها للهجرة من قراهم ومدنهم، وبيوتهم وأراضيهم، فتشردوا في الأصقاع مهاجرين، لكنهم ما زالوا ـ وسيبقون بإذن الله ـ يتطلعون ليوم العودة، وهو حق من حقوقهم الرئيسة، نسي الناس أم تناسوا، ذكروا ذلك الحق أم تنكروا له، فذلك كله ماثل أمام صاحب الحق بالعودة، فهو عازم عليه، ويلقنه أبناءه وأحفاده، صباح مساء، ويعبر عن تمسكه بهذا الحق أمام الأهوال، والمغريات على حد سواء، ولن تنسيه كل البدائل تشبثه به، وهو على يقين بنيله مهما طال الزمان، فهذا الحق غير قابل للتصرف، ولا يسقط بالتقادم، ما دام في هذا الشعب عرق ينبض، وقلب يعمره الإيمان بالله، ناصر المستضعفين، ومهلك الطغاة والظالمين، أسوته رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، وصحبه الغر الميامين، الذين صدقوا الله فصدقهم، فأخذوا بتوجيه الله لهم، الذي كان منه قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]ومعلوم أن الصبر يُطلب في حالات القهر والاضطهاد، والمصابرة تعني مغالبة الخصم بالصبر على بلائه وويلاته وظلمه وبطشه وغطرسته، أما المرابطة فتدل على ملازمة الثغور، حتى يبقى الوجود الإسلامي في مواطن المسلمين،

1- مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري رضي الله.
2- آل عمران:200.

ويتطلب هذا منهم أن يكونوا الدروع البشرية التي يصدون بها المد الاستعماري الذي يستهدف أن يحل مكانهم، ويمسحهم من ذاكرة التاريخ والوجود.

وقد تضمنت الآية الكريمة أمرها بالتقوى، إضافة إلى حثّها على الصبر والمصابرة والمرابطة، ومعلوم أن التقوى مصطلح جامع لأصول الدين، فهي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، ولن يكون تقياً حسب هذا المفهوم منْ يسمح لنفسه بالتنازل عن حقه بالوجود على أرضه التي باركها الله، وجبل ترابها بدماء الشهداء من لدن الصحابة الأبرار رضي الله عنهم، وحتى يومنا هذا، فما زالت مواكب الشهداء ترتقي أرواحهم عند ربهم، وستبقى على العهد جيلاً بعد جيل، إلى أن تعود الحقوق الشرعية لأصحابها، ويرفع الضيم والظلم والاحتلال عن هذه الأرض المباركة، التي تقدست بمعالم ومساجد منقطعة النظير.

فأرضنا وأوطاننا تستحق منا المرابطة والثبات، والتمسك بمشروعية حقنا في العودة إليها، بعد أن هُجّرنا من بعض مواطنها، حتى وإن ذهبت منا المهج والأرواح، فإما حياة تسر الصديق، وإما ممات يغيظ العدا، وإزهاق الأرواح على درب المرابطة لا يسمى في المفهوم الشرعي موتاً، وإنما هو الشهادة التي مجد الله أصحابها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [1] وأكد الله سبحانه هذا القرار الرباني في سورة آل عمران، فقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [2].

وشتان بين من يعتبرهم الله أحياء وبين الأموات، فالله تعالى يشير إلى هذا الفرق بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [3]. ومن اليقينيات التي يقرها الإسلام بموجب النصوص الشرعية المعتمدة فيه، اعتبار الذي يقتل مظلوماً شهيداً، فعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" [4].

1- البقرة:154.

2- آل عمران:169.

3- فاطر:22.

4- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:"قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ. قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ"[1].

فأسوتنا ﷺ غرس فينا مبادئ من شأنها ترسيخ موقفنا الثابت من التمسك بحقنا في العودة إلى ثرانا الطاهر، وأرضنا الطيبة المباركة، فمن حظي بهذا الحق؛ فهو العزيز الذي نال إحدى الحسنيين، ومن فارق الحياة الدنيا دون أن ينال هذه الحسنى، ولكنه كان متحفزاً لها، عاملاً لنيلها، فنحسبه عاد إلى ربه راضياً مرضياً، مع زمرة الذين خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

ولا مفر أمام المرابطين المتشبثين بحقهم في العودة إلى أرضهم، سوى الإصرار على تمسكهم بثوابتهم ومبادئهم، إن أرادوا الخير لأنفسهم، والعزة لدينهم وأمتهم، وإلا فالخسارة ستكون كبيرة، تبدأ لحظة التفريط، وتمتد عبر الزمان والتاريخ، إلى أن تكون وبالاً وجحيماً على المفرطين في نار السعير.

فخسارة الأمة فترة زمنية من العمر، في ظروف الضعف والعجز عن تحصيل الغايات النبيلة لا تبرر بحال من الأحوال القبول بالاستسلام والتنازل عن الحقوق المشروعة، والثوابت التي حملها شرفاء هذه الأمة ومناضلوا شعبنا الصامد المرابط، إذ إن التفريط بتلك الثوابت هو الخسارة الحقيقية، لأنه يعني أننا سعينا نحو الخسران بأنفسنا وقرارنا، وذلك خزي وعار، نسأل الله أن يجنبنا إياه، وأن يعصمنا من الوقوع فيه.

والإصرار على حق العودة الذي يرسخه رسول الله ﷺ، فينا، لا يتعارض مع تكيفنا بالعمل وفق مقدورنا وطاقاتنا، فمعلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه وتعالى رفع عنا الحرج فيما لا نطيق، فقد ختم الله سبحانه وتعالى سورة البقرة "زهراء القرآن الكريم"، بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء.

2- الفجر: 27-30.

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [1].

فلم يكلف الله خلقه ما ليس لهم به وسع أو طاقة، لكن المؤمنين مع ذلك يصرون على طلب النصر من الله على من ظلمهم، وسلب حقوقهم، وسفك دماءهم، والله ناصرهم لا محالة، مصداقاً لوعده الذي قطعه لهم، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2]. وهو نصر قريب وليس ببعيد، فمهما اشتدت ظلمة الليل فنور الفجر سيسطع من جديد، بإذن الله، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [3].

والله سبحانه بشر المسلمين بنصره القريب المؤزر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4].

فنصر الله حق وحقيقة، لا وهم ولا خيال، فلا مجال للقنوط والخنوع، في فترة انتظاره وجراء التعرض لمعاناة الهزيمة في فترات عابرة من التاريخ، فالله تعالى أشار إلى المحبطين اليائسين مؤنباً إيّاهم بقوله، ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [5].

فحق المهجّرين بالعودة سيبقى راسخاً في قلوبنا رسوخ الجبال الراسيات، ولن تفلح محاولات الطمس أن تسلخ المؤمنين عن مبادئهم التي ثبتها دينهم في قلوبهم وواقعهم، وإن يوم العودة لقريب بإذن الله وعونه. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، إمام المهاجرين، وقدوة العائدين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- البقرة:286.

2- الروم:47.

3- البقرة:214.

4- الصف:13.

5- الحج:15.

لما كانت الزراعة مصدراً أساسياً ومهماً من مصادر الحياة الاقتصادية، فقد أولاها ديننا الحنيف عناية زائدة، وانزلها منزلة رفيعة، فقد وردت الآيات الكثيرة والأحاديث النبوية الشريفة التي تبين فضل زراعة الأرض وإعمارها، من ذلك حديث رسول الله ﷺ فيما رواه الصحابي الجليل أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال :قال رسول الله ﷺ: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"[1].

إنه توجيه كريم وهدي نبوي شريف يحض المسلمين على إعمار الأرض وزراعتها واستغلالها بما هو نافع لمخلوقات الله وأممه في هذه الأرض من البشر والطيور والبهائم والأنعام. فعلاوة على كون الإنسان يستفيد من الزراعة باعتبارها إحدى دعائم الحياة الاقتصادية، والناس في معاشهم لا يستغنون عن هذه المزروعات، إذ تشكل عصب غذائهم وحياتهم، فقد ربط الإسلام بين هذا النفع الدنيوي للغرس والزرع، وبين الانتفاع الأخروي بالثواب والجزاء، فأي طير أو إنسان أو بهيمة يأكل من هذا الزرع أو من ثمر الغرس، فإن للمزارع أوالغارس أجراً على ذلك، إذ يعين بناتج هذا الزرع أو ثمار الغرس على استنقاذ حياة هذه المخلوقات الحية التي كتب الله الأجر لمن يبقيها حية، وقد ورد في حديث آخر:" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟، قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"[2] وقد أشار الله تعالى إلى هذه المغروسات والمزروعات في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ

1ـ صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

2ـ صحيح البخاري،كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء.

مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [1] وفي قوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [3].

فقد هيأ الله تعالى هذه الأرض وجعلها صالحة للزرع والغرس، كما أنزل الماء سقياً للإنسان والأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [4] فهيأ الله تعالى بقدرته وبديع خلقه هذه الأرض التي استخلف فيها الإنسان لكي يغرسها ويزرعها ويعتاش من ناتجها، وقد أمده الله تعالى بكل أسباب الحياة من الماء والهواء وجعل الأرض مستنبتاً صالحاً لكل أنواع الزرع والشجر ﴿ . . . . وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ . . . . ﴾ [5] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [6] فسبحان من تكفل للإنسان برزقه، وهيأ له أسباب هذا الرزق في هذه الأرض، يزرعها ويغرسها بما شاء من الأشجار المثمرة التي تسقى بماء واحد، وتتعدد أشكالها وتتنوع مذاقاتها، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ

1ـ الأنعام:141.

2ـ الواقعة : 64ـ 65.

3ـ طه:53.

4ـ الأنبياء:30.

5ـ الأنعام:141.

6ـ عبس:26ـ32.

مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1].

إن هذا الحثّ من الله تعالى ورسوله على زراعة الأرض واستغلالها يعود على الأمة بالنفع والخير، فالأمة الناجحة التي تقيم اقتصاداً قوياً وسليماً هي الأمة التي تأكل مما تزرع، وتلبس مما تصنع، وهو ما يعرف اليوم بالاكتفاء الذاتي ومتطلباتها، فإذا كانت الأمة محتاجة في غذائها أو كسائها لأمة أخرى، فإنها ستخضع لرغبات ومتطلبات هذه الأمة أو هذه الدولة، وهذا ما استغلته الدول الاستعمارية حينما تسللت إلى ديار المسلمين بحجة مساعدتهم في توفير الغذاء والدواء والتعليم لهم، تحت مسميات كثيرة في ظل مساعدات إنسانية وإغاثية، وهي في حقيقتها تبشيرية واقتصادية من أجل بسط سيطرة هذه الدول على مقدرات شعوب هذه الأمة التي عانت من الاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي الشيء الكثير، ومازالت تعاني وطأة التبعية جراء المديونية الكبيرة التي تطوق رقاب الأنظمة الحاكمة ورقاب شعوبها.

لقد أولت أمتنا الإسلامية الزراعة اهتماماً كبيراً منذ تكونت الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة بقيادة الرسول ﷺ، الذي وجه المسلمين إلى الاهتمام بالأرض وزراعتها والاستفادة من كنوزها وخيراتها، وكثيراً ما صالح عليه الصلاة والسلام أقواماً في أطراف الجزيرة العربية على جزء من ناتج أرضهم يؤدونه للمسلمين، وهذا ما فعله من بعده خلفاؤه الراشدون، فقد أبقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه سواد العراق بيد أهله على أن يؤدوا للمسلمين الخراج الذي هو جزء من ناتج الأرض وغلتها،كما أولى خلفاء الدولة الإسلامية وأمراؤها في زمن الأمويين والعباسيين ـ ومن بعدهم ـ الزراعة، اهتماماً بالغاً، فشقوا قنوات للري، وبنوا السدود، واستغلوا مياه الأنهار والأمطار في مجالات الزراعة مما عاد على المزارع وعلى الأمة بالنفع والخير والبركة، خاصة إذا ما علمنا أن الدولة كانت توزع الأرض على

1ـ الرعد:4.

المزارعين لتشجيعهم على استغلالها واستثمارها، وهذا يتفق مع التوجيه النبوي الشريف "مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً، فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ"[1] وحتى لا تتعطل الأرض عن الإنتاج، فقد حث الرسول ﷺ صاحب الأرض التي لا يستطيع استغلالها أن يمنح هذه الأرض لأخيه المسلم يزرعها ويستغلها، " مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبَى، فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ " [2] وأي حث أبلغ في استغلال الأرض من توجيه النبي ﷺ إلى التماس الرزق في خبايا الأرض، بقوله "التمسوا الرزق في خبايا الأرض "[3]، فلا شك في أن الأرض إذا اعتنى بها أصحابها، وقاموا على إحيائها واستغلالها على الوجه الأكمل، فإنها ستدر عليهم خيراً كثيراً، ينفعهم في الدنيا، وينالون عليه الأجر في الآخرة، فالأرض تجود بخيراتها إذا وجدت اليد الحانية والعاملة بإخلاص في زراعتها وإحيائها والاعتناء بها، ولعله من نافلة القول الحديث عن خيرات بلاد المسلمين التي تتوافر فيها الخصوبة والمياه. هذه الأرض التي لو استغلت على الوجه الصحيح، وبالطرق الحديثة في الزراعة والري، لكفت العالم الإسلامي وزاد إنتاجها ليصدر للأمم الأخرى، ولكن مع الأسف ترى الإهمال لهذه الأرض أو الاستغلال بالطرق البدائية، مما يحد من الطاقة الإنتاجية، ويجعل غالبية شعوبنا العربية والإسلامية تعتمد على الآخرين في قوتها، وتفسح لهم مجال التحكم في أمنها الغذائي، هذا الأمن الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة قريش بقوله تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[4] فأي أمة تريد أن تعيش مستقرة يجب أن يتوافر لها الأمن الغذائي والأمن الشخصي والعام، وهذان الأمنان لا تقوم الحياة بدونهما، ولا يمكن لأية أمة أو شعب لا يتمتع بالأمن الغذائي والأمن الشخصي أن يستقر وينتج .

1ـ سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في إحياء الموات.

2ـ صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة.

3ـ أخرجه ابن عساكر في معجم الشيوخ.

4ـ قريش: 1-4.

لهذا ولغيره، فقد اهتم ديننا الحنيف بوسائل العيش، وتنمية الاقتصاد القائم على الزراعة والتجارة والصناعة حتى تكون الأمة في منعة، وفي منأى عن مطامع الأمم الأخرى، تحت طائلة الحاجة إلى الغذاء أو الكساء أو الدواء، وإذا كنا في هذه الديار المباركة نعاني من عدوان الاحتلال الإسرائيلي على الشجر والحجر والزرع والنسل، بقيامه بقطع الأشجار المثمرة، وخاصة شجرة الزيتون المباركة، كما يقوم بحرق المزروعات الأخرى، وتجريف الأراضي الزراعية، فإن هذا العدوان يجب أن يزيد من إصرارنا على التمسك بأرضنا وزراعتها واستغلالها على الوجه الأكمل، على الرغم من كل هذه التحديات والاعتداءات على أرضنا التي يزرعها الاحتلال بالمستوطنات والمغتصبات والمستعمرات بالغطرسة وقوة السلاح، ظناً منه أن أهل هذه الديار ينسون حقهم في هذه الأرض الطاهرة التي رويت بدماء الأجداد والآباء، والتي يضحي الأبناء من أجل حمايتها والدفاع عنها بالغالي والنفيس، مستذكرين قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [1]، فلنقبل على الأرض، نتمسك بها ونعمرها ونغرسها بما يحفظها، عامرة خضراء، تنبت من الثمرات والخيرات والبركات، ما يتفق وبركتها الواردة في قول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [2]، وبهذا نكون قد تأسينا برسولنا الأسوة ﷺ الذي حثنا على زراعة الأرض واستغلالها في هديه الشريف، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- النور:55.

2- الأنبياء:71.

يحيي شعبنا الفلسطيني في هذا اليوم؛ السابع عشر من شهر نيسان، يوم الأسير الفلسطيني، هذا الأسير البطل الذي قدم التضحيات في سبيل الله، من أجل حماية أرضه ووطنه، وكرامة مواطنيه فوق هذه الأرض الطاهرة التي نشأ فيها وترعرع، ودرج على ثراها، يلتصق به ويلثمه، ويتغذى من نباته، ويستظل تحت شجره، ويصقل الروح والنفس في رحاب مقدساته، فما هان على الأسير الفلسطيني يوماً حق الوطن وحبه، فحب الوطن من الإيمان، ولا تراجع الأسير لحظة عن صلابة موقفه، وهو يطالب بحرية أرضه وأهله، ويبث الأمل في النفوس، بقرب يوم الحرية لشعبه، كما يشحذ العزائم، ويشد الهمم، رغم ظلمة السجن، وقسوة السجان.

إنه الأسير الذي أوصى رسول الله ﷺ، المسلمين بالعمل على إطلاق سراحه، وفكاك أسره، بقوله عليه الصلاة والسلام: " فُكُّوا الْعَانِيَ[1]،وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ"[2].

ومن هذا الحديث وغيره، فهم علماء الأمة وفقهاؤها وجوب العمل على إطلاق سراح الأسير، وبذل الغالي والنفيس من أجل حريته، سواء عن طريق المبادلة بأسرى الأعداء، أم ببذل الفدية بالمال، ولو كلف الأمة مالها، ويتطلب هذا تضافر جهود الأمة لتحقيق هذا الهدف الكريم، والمطلب السامي، لحرية الأسير، وعودته كريماً، إلى رحاب الوطن، وأحضان الأهل والصحب، وقد بادل رسول الله ﷺ، أسرى المسلمين بأسرى الأعداء، كما درج على ذلك الخلفاء والأمراء من بعده.

وقد سير المعتصم العباسي جيشاً لنصرة امرأة مسلمة، اعتدى عليها الروم وأسروها، فأطلق سراحها، وأعاد لها كرامتها وعزتها، فلم يغفل ديننا الحنيف عن حق الأسير في الحرية والكرامة، ووجوب تحقيق ذلك، على أمير الأمة وحاكمها، لا بل على مجموع الأمة، وهذا أمر واضح في حق الأسير على الأمير والأمة، لأن الأسير يشكل فرداً من أفرادها، ولبنة في بنيانها.

1- العاني: هو الأسير، النهاية في غريب الحديث 314/3.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

وما دمنا نتحدث عن الأسير وواجب الأمة تجاه أسراها، فلا بد من الإشارة كذلك إلى معاملة الأسير لدى المسلمين، فقد جاء الإسلام، وكانت الأمم السابقة تعامل الأسير معاملة لا تليق بالإنسان، فإن سلم الأسير من القتل، أو تقديمه قرباناً للآلهة، فإنهم يتخذونه رقيقاً، يباع ويشترى في أسواق الرقيق، كما هو الحال لدى الفرس والرومان واليهود.

لقد رفض الإسلام هذه المعاملة القاسية للأسير، وأقر للأسير بحقه في الإنسانية والحياة، ومعاملته بما يحافظ على كرامة الإنسان، الذي كرّمه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، والرسول ﷺ، يخاطب المسلمين، وقد وقع بعض الأسرى في أيديهم "استوصوا بالأسارى خيراً"[2] فكان المسلم يقدم خير الطعام لأسيره، عملاً بوصية رسول الله ﷺ .

وحرم الفقهاء المسلمون تعذيب الأسير بالجوع والعطش، بل أوجب الإسلام أن يقدم له الطعام والشراب، وأن يحجز في مكان يقيه من الحر والبرد، كما يوفر له الكساء.

وذهب الإسلام إلى أبعد من هذا، فجعل العناية بالأسير بإطعامه وسقايته، قربة يتقرب بها المسلم لله تعالى، فقال ﷻ في حق المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا*إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3]والرسول ﷺ، يقول بحق الأسرى: "لا تجمعوا عليهم حر السيف والعطش"[4] وإذا كانت المعاهدات الدولية قد نصت على احتجاز الأسرى في أماكن تتوافر فيها شروط إقامة جيش الدولة الآسرة، فقد سبق الإسلام في ذلك، فقرر احتجاز الأسير في أماكن ملائمة لحياته، بعيداً عن السكان، مع توفير المأكل والملبس والمأوى الملائم للأسير، حتى يبت في أمره.

والبت في أمر الأسير يترك للحاكم المسلم، وفق ما تقتضيه مصلحة الأمة، فإما أن يبادل بأسرى المسلمين، أو يختار الفداء، أو المن بإطلاق السراح، لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ

1- الإسراء: 70.

2- أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، وإسناده حسن، 86/6.

3- الإنسان:8-9.

4- أخرجه ابن العربي في عارضة الأحوذي، وهو صحيح، فيض القدير 406/4، عمدة القاري 203/15.

الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [1] فكما حرص الإسلام على الأسرى المسلمين، وحث أتباعه على وجوب العمل على إطلاق سراحهم بشتى الوسائل، فقد اعتنى كذلك بأسرى غير المسلمين الذين يقعون في أسر المسلمين، وبين الأحكام التي يجب أن يراعيها المسلمون، حفاظاً على كرامتهم الإنسانية.

فإسلامنا دين الرحمة، وهو الرحمة لبني الإنسان، التي جاء بها رسولنا الأسوة ﷺ، للخلق، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [2] .

فهذا ديننا، وهذا رسولنا، وهذه أخلاق حكامنا وشعوبنا، في معاملة الأسير، فهلْ نال أسرانا مثل هذه المعاملة لدى غيرنا ؟

إن أسرانا في السجون الإسرائيلية، يعانون ضيق العيش في ظلمات السجون، وفي العزل الانفرادي، والحرمان من التطبيب، وفي كثير من الأحوال يحرمون من زيارة الأهل، ومن أبسط الحقوق الإنسانية.

وإننا في يوم الأسير نشد على أيدي أسرانا، ونحييهم بتحية الإكبار والإجلال، وندعو لهم بتفريج كربهم، وحسن خلاصهم، ونقول لهم: إن يوم الفرج قادم بإذن الله، فأنتم الأعزاء على قلوب أهلكم، وأمتكم، وأنتم طلائع الحرية، والكرامة، لشعبكم، وأمتكم، ووطنكم.

ولن تنساكم الأمة التي حثها رسولنا عليه الصلاة والسلام على وجوب فكاك الأسير، والعمل على إطلاق سراحه، ونيله الحرية، وصلى الله وسلم، وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

1- محمد:4.

2- الأنبياء:107.

الفصل الرابع

الصيام والحج والصدقات		
17	يعطي ولا يخشى من ذي العرش إقلالاً	72
18	هديه في صيام شعبان	75
19	يحث على تحري هلال رمضان	78
20	يستقبل رمضان بالهمة والاجتهاد	81
21	يبشرنا بفضل الصيام وجزائه	85
22	يحثنا على إحياء ليلة القدر	89
23	هديه في يوم عيد الفطر	93
24	يُرغّب في صيام الستة من شوال	97
25	يحدد فريضة الحج بمرة في العمر	102
26	يبين ثواب الحج	105
27	في مؤتمر الحج الأكبر	109
28	هديه في الأضحية	113
29	هديه في يوم الأضحى	117

من الصفات الكريمة، والخصال الحميدة، التي تحلى بها رسول الله ﷺ، وكل خصاله حميدة، السخاء، فكان ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويغلب جوده السحاب المرسل، أو المزن المثقلة، فقد وصفه الصحابة – رضوان الله عليهم – بأنه:" أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ"[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال:" مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَ: لَا"[2].

ومواقف عطائه وسخائه ﷺ لا يكاد العاد يحصيها، ولا الكاتب يجليها، فهو معدن الجود، والكرم، والعطاء، والسخاء، الذي أيقن أن خزائن العطاء الإلهي لا تنفذ، ولا تنقص، ومن كان هذا حاله فلا يبالي، كيف ينفق ويعطي؟ ما دام العطاء في سبيل هذا الدين، يوضح هذا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال:" أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا"[3].

إنه ﷺ الرحمة المهداة، والنعمة المزجاة، التي أكرم الله بها الكون، وخص بها العالمين، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[4].

وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

1- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.

2- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطائه.

3- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطائه.

4- الأنبياء:107.

5- التوبة:128.

ومن مظاهر حرصه ﷺ على الأمة ورحمته بها أنه لم يشق على أمته، ولم يكلفها ما لا تطيق، فكان ينهاهم عن كثرة السؤال، مخافة أن تحرم عليهم أمور نتيجة السؤال، " دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[1].

" مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ...."[2] بهذا التشريع العظيم، والرحمة الشاملة، والسخاء، والعطاء، ربى رسول الله ﷺ أصحابه، فكانوا الأنموذج الإنساني، والكيان الإيماني، الذي حمل لواء هذا الدين ونشره في أرجاء المعمورة، تتوارثه الأجيال عقب الأجيال، نوراً يهدي به الله البشرية التائهة إلى صراط الله المستقيم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

إن لين الجانب، ورأفة رسول الله ﷺ وسخاءه، مكنت حبه في القلوب، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[4] فأصبح أحب الناس إلى قلب مبغضه، وأقرب الناس إلى قلب حاسده، يوضح ذلك ما رواه مسلم والترمذي عن محمد بن شهاب الزهري قال:" غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ، فَنَصَرَ اللَّهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ، ثُمَّ مِائَةً، ثُمَّ مِائَةً قَالَ ابْنُ شِهَابٍ حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ"[5].

1- صحيح البخاري،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

2- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ

3- المائدة:15-16

4- آل عمران:159

5- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه.

وقد أعطى ﷺ يوم حنين أعطيات كثيرة لمسلمي الفتح، تأليفاً لقلوبهم، وترغيباً لهم في هذا الدين، فلم يكن متاع الدنيا وحطامها وغنائمها هدفاً يسعى إليه رسول الله ﷺ ليحوزه، بل كان الهدف؛ الدعوة والتمكين لهذا الدين في النفوس، هذه النفوس التي كبرت مع هذا الدين والأخلاق النبوية، فاشتاقت إلى لقاء الله تعالى في ميادين الشهادة والجهاد في الأرض، وآثرت الخالد الباقي في دار النعيم، عند مليك مقتدر، على الزائل الفاني، من دنيا الناس ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1] ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ولما كانت النفس الإنسانية تميل إلى حطام الدنيا وعطائها منه، فقد أعطى رسول الله ﷺ من سأله، ومن لم يسأله المال والأنعام، تأليفاً لهم، ورحمة بهم، لإنقاذهم من الضلال والظلمات، إلى الهداية والنور، ومحبة هذا الدين، وسرعان ما يتغير حال هؤلاء، فيصبح ما عند الله، هو مقصودهم وهدفهم، فيزهدوا في الدنيا وما عليها، ابتغاء رضوان الله تعالى، فتكبر الهمم، وتسمو النفوس، وتكد الأجساد في تحقيق المراد.

ولقد أصاب القائل: وَإذا كانَتِ النُفوسُ كِباراً تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ

فهذا رسول الله ﷺ يربي النفوس على العطاء والسخاء، وهو أسخى الناس، ويحث على الكرم، والبعد عن البخل، فيقول: " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ "[3].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الكرماء، وأن يمنحنا خصلة السخاء، تأسياً برسولنا، وحبيبنا الأسوة صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- التوبة:38.

2- العنكبوت:64.

3- سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله،باب ما جاء في السخاء.

شهر شعبان من الشهور التي كان النبي ﷺ، يكثر الصيام فيه، فقد روت عائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ"[1]وفي رواية:"كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا"[2].

وفي هذه الأحاديث ما يشير إلى هدي النبي ﷺ في شهر شعبان، فهو لم يستكمل صيام الشهر، وإنما كان يصوم أكثره، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت:" مَا عَلِمْتُهُ صَامَ شَهْرًا كُلَّهُ إِلَّا رَمَضَانَ، وَلَا أَفْطَرَهُ كُلَّهُ حَتَّى يَصُومَ مِنْهُ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ"[3]،وعن ابن عباس،رضي الله عنهما، قال:"مَا صَامَ النَّبِيُّ ﷺ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ..."[4].

لقد أولى رسول الله ﷺ صيام شهر شعبان قدراً كبيراً من اهتمامه وعنايته به، فعن أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، قال:" ... لَمْ أَرَكَ تَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنْ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ، بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ يُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ "[5].

واضح من فعل النبي عليه الصلاة والسلام وقوله أنه كان يكثر الصيام في شهر شعبان، وعلل ذلك بأن هذا الشهر، الذي يقع بين رجب الفرد، الشهر الحرام، وبين شهر رمضان، شهر يغفل الناس فيه عن التطوع، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين للأمة أهمية التطوع في هذا الشهر، كما أنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب النبي ﷺ أن يرتفع عمله وهو صائم، قال ابن رجب رحمه الله:" صيام شعبان أفضل من صيام الأشهر الحرم، وأفضل التطوع ما كان قريباً من رمضان قبله

1- صحيح مسلم ، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان.

2- صحيح مسلم ، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان.

3- صحيح مسلم ، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان.

4- سنن الدارمي، كتاب الصوم، باب في صيام النبي ﷺ.

5- مسند أحمد، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ.

وبعده، وتكون منزلته من الصيام بمنزلة السنن الرواتب مع الفرائض قبلها وبعدها، وهي تكملة لنقص الفرائض، وكذلك صيام ما قبل رمضان وبعده، فكما أن السنن الرواتب أفضل من التطوع المطلق بالصلاة، فكذلك يكون صيام ما قبل رمضان وبعده، أفضل من صيام ما بَعُد عنه"ولما كان شهر شعبان واقعاً بين الشهر الحرام وشهر الصيام، وهما شهران عظيمان، أحدهما شهر الحرام، وثانيهما شهر الصيام، وهو محل أداء فريضة الصيام، فينشغل الناس بينهما عن شهر شعبان، صار مغفولاً عنه، فيظن الناس أن صيام رجب أفضل من صيام شعبان، لأن رجب شهر حرام، والأمر ليس كذلك، فقد يبدو أن زماناً يشتهر بالفضل، ويكون غيره أفضل منه.

وفي هدي النبي ﷺ، ما يشير إلى استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وقد حافظ فريق من السلف الصالح على إحياء ما بين العشائين بالصلاة، ويقولون هي ساعة غفلة،كما رغب العلماء في استحباب ذكر الله تعالى في السوق، لأنه ذكرٌ في موطن من مواطن الغفلة، وفي إحياء الأوقات المغفول عنها بالطاعة فوائد جليلة، منها:

1ـ أن يكون أخفى للعمل، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل، لا سيما الصيام، فإن الصيام سر بين العبد وربه، ولهذا كان أبعد العبادات عن الرياء، وقد كان بعض السلف الصالح يصوم سنين عديدة لا يعلم به أحد.

2ـ العمل الصالح في أوقات الغفلة أشق على النفوس، ومن أسباب أفضلية الأعمال مشقتها على النفوس، فالعمل إذا كثر المشاركون فيه سهل على النفوس، وإذا كثرت الغفلات شق ذلك على المتيقظين العاملين في وقت غفل الناس عنه، فالعمل في أوقات الغفلة، أو الفتنة، هو عمل مغاير لما عليه الناس، وفي ذلك ما فيه من المشقة على النفس.

وللعلماء في كثرة صيام النبي ﷺ في شعبان أقوال، منها:

* أن النبي ﷺ، كان إذا فاته صيام ثلاثة أيام من كل شهر لشغل، أو سفر، أو غيره، يقضيها في شعبان، لأنه عليه الصلاة والسلام كان إذا عمل بنافلة أثبتها، وإذا فاتته قضاها.

* ومنها أن نساءه كن يقضين ما عليهن من رمضان في شعبان.

* ومنها أنه شهر يغفل الناس عنه، وهو أرجح الأقوال لحديث أسامة رضي الله عنه: "ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ".

وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل شهر شعبان، وعليه بقية من صيام التطوع قضاه في شهر شعبان، حتى يستكمل نوافله من الصوم قبل دخول رمضان.

كما أن صيام شعبان كالتمرين على صيام رمضان، لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، فيدخل في شهر الصيام بقوة ونشاط، كما اعتنى كثير من السلف الصالح بإحياء شهر شعبان بقراءة القرآن، ولذا كان يقال عن شهر شعبان، شهر القرّاء.

أما الصيام في أواخر شهر شعبان، فقد نهى عنه النبي ﷺ، فيما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، في صحيح مسلم عن النبي ﷺ، قال:"لَا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ، إِلَّا رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمًا، فَلْيَصُمْهُ"[1]. وهذا ما رجحه جمهور العلماء، وهو كراهية التقدم قبل رمضان بالتطوع، بصوم يوم أو يومين، لمن ليس له عبادة صوم.

وذلك لئلا يزاد في صيام رمضان ما ليس منه، وهو رديف نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن صيام يوم العيد، وحتى لا يزاد في الدين ما ليس منه، ولعل النهي عن صوم يوم الشك يأتي في هذا السياق، فقد روي عن عمار، رضي الله عنه، قال عن صيام يوم الشك:" مَنْ صَامَ هَذَا الْيَوْمَ، فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ"[2].

هذا هو هدي النبي الأسوة ﷺ، في صيام شعبان، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المهتدين بهديه، والسائرين على سنته، والمحيين لها عند فساد الناس، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم ، كتاب الصيام، باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين.

2- سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب كراهية صيام يوم الشك.

لما كان صيام شهر رمضان ركناً من أركان الإسلام، وعبادة يؤديها المسلمون في وقت معلوم، هو ميقات لها، وهو شهر رمضان، فقد حرص النبي الأسوة ﷺ أن يبين لأمته علامات واضحة تحدد ميقات هذه العبادة، فجاء خطابه ﷺ لأمته واضحاً بيّناً لا لبس فيه، فقال: "فإذا رأيتم الهلال، فصوموا، وإذا رأيتموه، فأفطروا"[1]، فقد جعل ﷺ رؤية الهلال أمارة وشرطاً للبدء في عبادة الصيام أو الخروج منها.

هذه الأمارة البينة التي يسهل على المسلمين رصدها، وقد كانت العرب تعتمد على رؤية الهلال لمعرفة بدايات الشهور، خاصة فيما يتعلق بالأشهر الحرم، كما أن هذه الأمارة؛ وهي رؤية الهلال في متناول أفراد الأمة الإسلامية، ناهيك عن مجموعها.

وقد جاء الخطاب الشريف إلى مجموع أبناء الأمة، "إذا رأيتم الهلال"، ولا يتعين على كل فرد من أبناء الأمة أن يرى الهلال، لما في ذلك من المشقة جراء اختلاف الطقس من منطقة لأخرى، أو وضوح الرؤية في مكان أو بلاد، وعدم وضوحها في غيرها.

لكن إذا رأى الهلال بعض أفراد الأمة، فإنه يكفي عن سائر الأمة، ويؤخذ بقوله وفق شروط العدالة وأداء الشهادة، فقد اكتفى جمهور الفقهاء بصحة شاهد عدل لرؤية الهلال، لأن الدخول في صيام شهر رمضان عبادة، ويكفي للدخول في العبادة شهادة عدل واحد، بخلاف الخروج من عبادة الصوم، فلا بد من شاهدي عدل لذلك.

لقد جاء الأمر بتحري رؤية الهلال ليضع إمارة ثابتة، وعلامة منضبطة للبدء في عبادة الصوم أو الخروج منها. وقد أكدت أحاديث أخرى أن الصيام مرتبط برؤية الهلال، فلا صوم من غير رؤية، لقوله ﷺ: "لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا، حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له"[2]، وقوله ﷺ: "صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين"[3]

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال.
2- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما.
3- صحيح البخاري، كتاب الصوم ، باب قول النبي إذا رأيتم الهلال فصوموا.

فإذا لم تحصل الرؤية، فقد بيّن رسول الله ﷺ أمارة أخرى للبدء في عبادة الصوم، وهي إكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً، وهذه أيضاً أمارة منضبطة؛ فالشهر القمري لا يزيد بحال من الأحوال عن ثلاثين يوماً، فهو إما تسعة وعشرون يوماً أو ثلاثون يوماً، حين إكمال العدة، يوضح ذلك قول الرسول ﷺ:"الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، إِلَّا أَنْ يُغَمَّ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ"[1].

وهكذا يبين رسول الله لأمته علامات ظاهرة، ومواقيت محددة للبدء في عبادة الصيام، فلا دخول في هذه العبادة إلا بيقين، وهو إما رؤية هلال رمضان، فنتحقق من دخول الشهر، ووجود سبب الصيام وشرطه، وإما إكمال العدة، وذلك بإتمام شهر شعبان ثلاثين يوماً، وبعد ذلك يكون الدخول في عبادة الصيام.

بعد بيان الميقات لعبادة الصوم والعلامات الدالة عليه، كما بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[2]، وأحاديث الرسول ﷺ الكثيرة السابقة التي سقتها، وكثير غيرها، فإن الأمارات المنضبطة للدخول في عبادة الصيام هي ؛ إما الرؤية، أو إكمال العدة.

ولا تنافي بين ما توصل إليه العلم الحديث من تطوير آلات وأجهزة الرؤية، كالاستعانة بالمراقب والمناظير التي تعين على رؤية الهلال، وكذلك الحسابات الفلكية العلمية التي تعنى برصد مراحل الهلال، وساعة تولده، وأماكن ظهوره في الأفق، وفي أي الزوايا القريبة من الشمس يكون ظهوره ؟ وكم يلبث بعد مغيب الشمس في الأفق ؟ فهذه العلوم من الفلك والحساب تعين المسلمين في التوصل إلى رؤية الهلال أو إكمال العدة، أو القدر للهلال بتتبع مراحله بشكل دقيق، يكاد يكون جازماً.

إذ إن مقصود الشارع بنصب هذه الأمارات هو الحرص على إتمام العبادة، وأدائها على وجهها الأكمل، فلا نصوم يوماً من شعبان، كما لا نفطر يوماً من رمضان، بل نؤدي عبادة الصيام كاملة،

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال.

2- البقرة:185.

بضبط بدء الشهر وضبط نهايته، في ظل توجيه النبي ﷺ؛"لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهِلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ"[1].

وإذا كان الخطاب للأمة صوموا لرؤيته، فعلى الأمة أن تسخر أو تستعين بكل الوسائل التي تعين على هذه الرؤية، للوصول إلى اليقين الذي يدخلنا في عبادة الصيام ونحن مطمئنون لذلك. ومع تقدم العلوم التي تعنى برصد الأهلة، وتحدد مراحل القمر وبدايات الشهور القمرية بدقة فائقة، فإنه أصبح من المتيسر على الأمة أن تحدد بدايات الشهور المتعلقة بعبادتها من حجٍ وصيام.

ومعلوم أن العبادات هي من أهم العوامل التي توحد الأمة، ومن مظاهر وحدة الأمة أن تبدأ صيامها في يوم واحد، وأن يكون عيدها في يوم واحد، ما دامت الوسائل التقنية والعلوم التطبيقية قد بلغت شأواً كبيراً في التقدم والدقة، مما يعين على إثبات رؤية الهلال أو نفي الرؤية. فلا يعقل أن ننفي العلوم القطعية، ونثبت شهادة ظنية لواحد ادعى رؤية الهلال والعلوم والحسابات الفلكية الدقيقة، تنفي إمكانية الرؤية.

وما دمنا على أبواب شهر رمضان الفضيل، فإننا من ديار الإسراء والمعراج ندعو أمتنا الإسلامية إلى العمل على توحيد بداية صومها، وهي تتحرى رؤية هلال شهر رمضان، أخذاً بالرأي الفقهي القائل بوحدة المطالع، أي إذا ثبتت رؤية الهلال في بلد إسلامي، فعلى سائر أقطار المسلمين أن تأخذ بذلك، وفي هذا ما يدعو إلى وحدة الأمة في عباداتها، وفي جميع أهدافها.

سائلين المولى ﷻ أن يجعلنا ممن يقتدي ويهتدي بهدي رسولنا الأسوة ﷺ، الذي أمرنا بالصيام، وحثنا على تحري الهلال، وأن يجعل شهر رمضان المبارك، شهر خير وعز ونصر للمسلمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم يوم الدين.

1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما.

ينظر بعض الناس إلى شهر رمضان على أنه فترة للتثاقل والنوم والخمول، فتراهم يتهيأون له بهذه الروح، وإذا ما جاءهم عاشوه بنفسها، فيؤجلون الأعمال ويتذرعون به لتبرير التقصير في أداء الواجبات الوظيفية، والاجتماعية، ويعطلون مصالحهم، وما يرتبط بهم من مصالح غيرهم بحجة أنهم مثقلون بمتاعب الصيام، والتحضير للإفطار والنهوض للسحور، ومن أبرز الآثار السلبية الناجمة عن هذا التصور السلبي لشهر الصيام تعطيل شؤون الناس في كثير من النواحي والمجالات، مما يتسبب في اضطراب العلاقات، وعرقلة مركب النهوض، الذي تتطلبه مقتضيات الحياة ومستلزمات تطورها وسيرها.

فرمضان شهر عمل وجد ونشاط وجهاد ودعوة إلى الله، لا تتعطل فيه عجلة العمل لإعمار الدنيا بالخير، فليس مقبولاً من أحد التعذر برمضان للكسل والتراخي عن العمل الجاد.

وإضافة إلى أنه موسم لتكثيف العبادة المتمثلة بالصيام والقيام والصلاة والصدقة وفعل الخير، فهو يتسع للقيام بأعظم الأعمال التي تتطلب نوعاً وكماً هائلاً من النشاط والهمم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ، فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ"[1].

كما أنه موسم يتيح لأصحاب الهمم المجال لانتهاز هذا الشهر لإصلاح كثير من الأخطاء في العلاقات والعادات، والإقلاع عن بعض العادات السلبية كالتدخين، وترك السلوك الخاطئ، مثل التشاجر والتدابر والغيبة والنميمة والكذب، وقول الزور، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ"[2].

1- سنن النسائي، كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى واجتنبوا قول الزور.

وهو ينمي في الصائم الحرص على أداء العمل في صورته المنضبطة، التي يتم فيها احترام مواعيد الحضور والانصراف، سواء أكانت للعمل أم للزيارات واللقاءات، فرمضان يُعَود على الانضباط والدقة في المواعيد، ويرسخ احترام الوقت، من خلال مراعاة الدقة في مواقيت الإمساك والإفطار والتراويح وصدقة الفطر، إضافة إلى أداء الصلوات المعتادة في بقية الأيام والشهور في أوقاتها المحددة.

وعلى خلاف الانحراف الذي يشاهد من سلوك بعض الصائمين، فإن الصيام يساعد على أداء الأعمال على أحسن وجه، من حيث الأمانة والإخلاص، وضبط الأعصاب، والظهور للناس ببشاشة، وعدم اتخاذ العبوس والتأفف والضجر مظاهر ملازمة للصيام، فالرسول ﷺ ، يوصي الصائمين بهذا الصدد، فيقول في الحديث القدسي:"قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ .وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ"[1].

فرمضان في صورته الأصيلة التي عاشها الرسول ﷺ ، وصحبه البررة، يعني الجد والاجتهاد والنشاط والجهاد، ففيه قدر الله أن يتلقى رسوله ﷺ القرآن، فقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[3].

وإذا كانت عملية إنزال القرآن لا يلزمها جهد، لأنها من فعل الله، فتلقي هذا المنزل العظيم، كان يجهد المتلقي ﷺ، فالرسول ﷺ، كان يجهد نفسه في ترديد القرآن لحفظه حتى طمأنه الله بأن الله سيحفظه، وأعفاه من هذا الجهد، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[4].

1- صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب هل يقول إني صائم اذا شتم.

2- البقرة: 185.

3- القدر:1.

4- القيامة:16-17.

فعملية التلقي هذه تتم خلال فترات أيام العام، لكنها كانت بمجموع القرآن في رمضان، وكان جبريل يراجع للرسول ﷺ القرآن في كل رمضان، وراجعه في العام الذي قبض فيه مرتين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :"كَانَ يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْرًا، فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ"[1].

وهذا دون أدنى ريب يتطلب جهداً يضاف إلى جهد الصيام والقيام، اللذين اختص بهما شهر رمضان، ولو أريد للأمر أن يكون على منهج كسالى رمضان لاختير شهر آخر غير رمضان لإنزال القرآن، وتلقيه، ومراجعته مع الوحي، لكن الرسول ﷺ ، الذي يمثل الأسوة الأولى للمسلمين كان مثالاً للجد والمثابرة في رمضان، ولم يكن ليتعذر بالصيام، ليطالب بتحويل تلقي القرآن من الوحي إلى شهر آخر، ليخفف عن كاهله أعباء تلقي القرآن في الصيام، ولم تقتصر مثابرته ﷺ، على تلقي القرآن ومراجعته مع الوحي في رمضان، إضافة إلى الصيام والقيام المضاعف فيه، بل ضرب، عليه الصلاة والسلام، أعظم مثال للمسلمين من بعده في خوضه الجهاد في رمضان، بل إن أعظم غزوات المسلمين ومعاركهم الحربية جرت في رمضان، فكانت بدر الكبرى في السابع عشر منه للعام الثاني للهجرة، وجيش، عليه الصلاة والسلام، جيشه الجرار لفتح مكة في العشرين من رمضان في العام الثامن للهجرة.

وتحققت للمسلمين الانتصارات العظيمة في هذا الشهر، فبدر الكبرى فتحت للمسلمين آفاق العزة والمنعة، وكسرت شوكة عدوهم، وفتح مكة عاد بالمسلمين إلى بيت الله الحرام ليعيدوه إلى التوحيد والحنيفة السمحاء بعد أن طهروه من صنوف الأصنام وعلامات الشرك والإلحاد.

فعلى أيدي الصائمين سخر الله النصر للمسلمين، وفيه خاض الرسول ﷺ، أعتى الصعاب والمشاق، مسطرين بذلك مشاهد للجد والعمل في رمضان.

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ.

وعلى نهج هذه الفئة التي سبقت بالإيمان والجهاد والخير، سار من اختارهم الله أسوة، ومثالاً يحتذى، فلبى المسلمون في مراحل تالية داعي الجهاد في رمضان، ولم يتذرعوا بالصيام للتفلت من تبعات دينهم، فخاضوا معركة عين جالوت في 24 رمضان سنة 658 هـ، وفتحوا عمورية في 6 رمضان سنة 223 هـ، بعد أن استجاب الخليفة المعتصم لصيحة وامعتصماه، وغير ذلك من الوقائع والأحداث الجسام التي شهدت للصائمين بالهمة والجد والمثابرة.

فهي الثلة الصادقة التي لم تتخذ التعذر منهجاً، كالمنافقين الذين يختلقون الأعذار تلو الأعذار للتهرب من تبعات الدين ومتطلبات الشرع، فمرة يتذرعون بالحر، وأخرى بأن بيوتهم عورة، وأنهم يخشون الفتنة ونساء بني الأصفر، كل ذلك بهدف التملص من تبعات الدين، ومثلهم وعلى نهجهم سار الذين يتذرعون بالعمل ورزق العيال لاستباحة الفطر في رمضان، ولا يختلف عنهم كثيراً من يتعذر بالصيام لترك العمل ومتطلبات الواجب، سواء تعلق بالبيت، أم بالأسرة، أم بالعمل والوظيفة، أم بالجهاد، أم غير ذلك من مجالات الحياة، غير أن المؤمن الذي يقتفي سيرة نبيه الكريم ﷺ، ونهج السلف الصالح يعد العدة للصيام نفسياً وروحياً وبدنياً ليعيش حياته مع صيامه في الزمان نفسه، دون أن يجد حاجة ليفرط بأحدهما مقابل الآخر، اللهم سوى الأخذ ببعض الترتيبات والإجراءات التي تساعد في تحقيق التوازن بين العمل والصيام، كأن يتسحر ويؤخر السحور، ويعجل الإفطار، ولا يواصل الصيام، وأن يختار نوع الفطور وترتيباته وأولوياته وكمياته بما يحفظ للجسم صحته وطاقته، وكل ذلك مبين في حديث الرسول ﷺ، وسيرته، الذي كان يصوم ويقوم ويجتهد في القيام، وبخاصة في العشر الأواخر من رمضان، ليبرهن على أن شهر رمضان للعبادة والعمل والجد والاجتهاد، وعلى هذا النهج ينبغي أن يسير الصائمون في سعيهم لأداء هذه العبادة على الوجه المشروع، الذي يظهرها في صورتها المشرقة المؤثرة في ترغيب الناس بالصيام وتوعيتهم بحقيقة شأنه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

في معرض بيان فضل الصيام وأهميته في حياة المسلم، تأتي الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة التي تبين جزاء هذه العبادة وثوابها، حاثة المسلم على أدائها على وجهها الأكمل، حتى يكون من الفائزين بثواب الله تعالى ورضوانه في الدنيا والآخرة.

فقد خاطبنا الله تعالى في كتابه الكريم مبيناً أن هذه العبادة فُرضت على جميع الأمم التي سبقتنا، يبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (1).

ومن ثمرات هذه العبادة العظيمة أنها طريق إلى التقوى، والتقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فحري بكل مسلم أن يستقبل هذا الشهر الفضيل بكل همة وعزيمة، ونية صادقة وخالصة لله، بصوم أيامه، وقيام لياليه، والبعد فيه عن كل ما من شأنه أن ينقص من ثواب فريضة الصيام التي وعد الله من أداها خالصة لوجهه الكريم، بغفران ذنوبه، وستر عيوبه، وجبر تقصيره وتفريطه بجنب الله، فقد ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله :"مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(2).

كما اختص الله تعالى هذه العبادة من بين أعمال العباد لنفسه، فجاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: يقول الله ﷻ:"والصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"(3)

1- البقرة: 183.

2- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح.

3- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه.

فما أعظم ثواب هذه العبادة ! وما أجزل ثواب مجزيها ! وهو الله تعالى الذي اختارها من بين أعمال العبد لنفسه، إنه المولى سبحانه، الغني عن العباد وعن عبادتهم، فهو الذي خلقنا وما نعمل، ونسب العمل إلينا فضلاً منه وكرماً، يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1] ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [2].

فأنعم بهذا الشرف والتكريم الذي أضفاه المولى على عباده الصائمين، وهنيئاً لصائم اختار الله صيامه لنفسه، ليجزي على ذلك الجزاء الأوفى، وهو تعالى الذي لا تنقص خزائنه، ولا حد لعفوه وفضله وإحسانه ومكارمه، بل يغفر كل شيء دون الإشراك به، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [3].

لقد تكفل سبحانه ـ وهو الذي لا يخلف الوعد والميعاد ـ أن يجزي على الصوم، ومن منا يمكنه أن يتصور حجم الجزاء الذي وعده الله لعباده الصائمين، إنه الكريم ذو الفضل العظيم، الذي يعطي ولا يمّن، ويغفر مع عظم الذنوب، ويتجاوز عن كبائر الزلات لمن أقبل إليه تائباً، وعاد إليه منيباً ونادماً، وقد عقد العزم على الصيام لوجه الله تعالى، إيماناً واحتساباً وطمعاً في ثواب الله العظيم.

فهنيئاً لمن يدع شهوته وأكله وشربه من أجل مرضاة الله تعالى، فقد آثر الباقي على الفاني، وحرم نفسه شهواتها ولذائذها في سبيل مرضاة الله، فكان هواه تبعاً لمراد الله تعالى، وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، الذي جاءنا بالهدى والنور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [4].

1- الصافات:96.

2- القمر:49.

3- النساء:48.

4- المائدة:16.

فتعالوا إخوة الإيمان في كل مكان كي نتعاهد، ونعقد العزم على ترك شهواتنا من لذائذ الطعام والشراب، والاستمتاع بالجماع، من أجل الله تعالى الذي أبقى الصيام لنفسه من بين أعمالنا، عسى أن يشملنا هذا الاختصاص، ونحظى بهذا الاصطفاء، لندخل في جوار الذي لا يضام جاره، ولا يظلم من طرق بابه، ولا من حط رحاله عند أعتابه، فأبواب فضله ما زالت مفتوحة، ومكارم عطائه لا يحصيها عدٌ، ولا يحيط بها حدٌّ، سبحانه واسع المغفرة، ذو الجلال والإكرام.

إنها معادلة سهلة على كل من يسرها الله له، إذ لا سهل إلا ما جعله الله سهلاً، فترك الشهوة وهي لذة عابرة، وعارية مستردة ومتعة مؤقتة، والامتناع عن الطعام والشراب في أيام رمضان احتساباً لوجه الله تعالى جزاؤه اختصاص الله تعالى لهذه العبادة لنفسه " الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي "[1].

ومن ترك شهوات الطعام والشراب والفرج، من أجل الله؛ جعل الله صومه حماية لنفسه وعصمة لقلبه، فيقيه وساوس الشيطان، ويحفظه من الوقوع في المعاصي والآثام،كالغيبة والنميمة وسوء الأخلاق، فهو في كنف الله تعالى الذي يجعل صيام عبده كالترس، يتقي به شر ضربات الأعداء، فقد جاء في الحديث الشريف :"... وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ..."[2].

ومن نعم الله على عبده الصائم، أن بشره بالفرح والسرور، وبأوقات الحبور التي ينتظرها الصائم، فقال رسول الله ﷺ ".. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ"[3]

1- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

3- صحيح البخاري، كتاب الصوم ، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

فأول أفراحه حين يفطر، وقد أعانه الله على صيام يوم رمضان، وحماه من شهوات النفس، ووساوس الشيطان الذي يغريه بالإفطار والتزود من شهوات الدنيا ومتاعها، لكن الصائم له نظرة أخرى إليها، وذلك في ضوء قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1].

نعم، إن الصائم حين يفطر يفرح بتوفيق الله له، على أن قدره على الصوم، كما يفرح بثواب الله الذي أعده للصائم، ولذلك جاء في الدعاء عند الفطر ما ورد عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أنه كان إِذَا أَفْطَرَ قَالَ:"ذَهَبَ الظَّمَأُ،وَابْتَلَّتْ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "[2].

فما أعظمها من فرحة جمعت كل أسرة مؤمنة صائمة لله تعالى على مائدة الإفطار ! ومائدة الإنعام والغفران من الله تعالى، الذي اختار الصيام لنفسه من بين أعمال العبد.

والصائم يصبو للفرحة الكبرى، والنعمة العظمى، حين يلقى ربه يوم القيامة، وقد أسبغ عليه مولاه خلعة القبول، ولسان وده يقول: أكرموا عبدي الذي حرم نفسه شهوتها، ومنعها أكلها وشربها من أجلي، فينادي المنادي: أين الصائمون؟ فيقف الصائمون ليدخلوا من باب الريان، وهو باب في الجنة، جعله الله لعباده الصائمين ليدخلوا منه يوم القيامة، فإذا دخلوا أُغلق، فلا يدخل منه أحد غيرهم، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن هذا الباب، فقال:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ "[3].

نسأل الله تعالى أن يشملنا بعفوه ورحمته، ويتقبل منا الصيام والقيام، ويجعلنا من عتقاء شهر رمضان، لندخل من باب الريان إلى الجنان التي وعدها الله عباده المتقين الصائمين.

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، خير من صلى وصام وقام، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الحديد:20.

2- سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب القول عند الإفطار.

3- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

لما كان شهر رمضان شهر العبادة والصيام، فقد حثنا رسول الله ﷺ على صيامه وقيامه اغتناماً لهذا الموسم العظيم من مواسم الطاعة، وتحصيلاً للثواب الكبير لمن صامه وقامه، وحافظ على صحة صيامه بعيداً عن المفطرات والشهوات، واجتناباً لكل ما يمكن أن يخدش الصيام أو يذهب بالثواب، كالغيبة والنميمة وقول الزور والجهل والسب والشتيمة، وذلك التزاماً بالأخلاق الإسلامية الفاضلة التي دعا إليها رسولنا الأسوة ﷺ، وهي كثيرة في هديه الشريف وسنته المطهرة.

فقد ورد عن الرسول ﷺ:"مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[1].

وبخصوص قيام ليلة القدر، قال ﷺ:"مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[2].

لذلك حرص الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ على تحري هذه الليلة، وقيام شهر رمضان مظنة إدراك هذه الليلة وموافاتها، وهم في طاعة يحيون ليل رمضان، علهم يوافقون ليلة القدر، وهم في عبادة وطاعة ودعاء لله تعالى.

وقد أشار النبي ﷺ إلى تحريها في العشر الأواخر من شهر رمضان، وبخاصة في ليالي الوتر منها، وها هي العشر الأواخر من رمضان قد بدأت، فعلينا معاشر المسلمين أن نجتهد في العبادة والطاعة، وتحري هذه الليلة المباركة، فيما تبقى من ليالي هذا الشهر الفضيل.

وقد كان ﷺ إذا جاءت العشر الأواخر من رمضان اجتهد في العبادة، فقد روي عنه ﷺ أنه"إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدَّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ"[3].

وقد حثنا بشكل واضح على تحري هذه الليلة المباركة في الليالي الوتر من هذه الليالي العشر بقوله:" تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنْ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ"[4].

1- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، فضل ليلة القدر.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.

3- صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

4- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب تحري ليلة القدرفي الوتر من العشر الأواخر.

قال ابن حجر في الفتح: وأرجح الأقوال أنها في وتر من العشر الأخيرة، وأنها تنتقل كما يفهم من أحاديث هذا الباب، وأرجاها أوتار العشر، وأرجى هذه الأوتار ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين، وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين.

ولعل إخفاء هذه الليلة وعدم تحديدها في إحدى الليالي المعينة ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لاقتصر الإحياء والدعاء على تلك الليلة، وفي إخفاء ليلة القدر وساعة الإجابة من يوم الجمعة وفي يوم عرفة، ما فيه من الحث على المداومة على الطاعة والدعاء في ليالي رمضان، ويوم الجمعة ويوم عرفة، وهكذا يبقى المسلم متيقظاً للطاعة، ومجتهداً في أعمال الخير، وملحاً في الدعاء والأوبة إلى الله.

وقد تنبهت أم المؤمنين أمنا عائشة الصديقة ـ رضي الله عنها ـ إلى أهمية هذه الليلة، فسألت رسول الله ﷺ " يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي"[1].

إنه دعاء جامع شامل بطلب العفو من الله تعالى، وإذا عفا الله عن العبد كان من الفائزين في الدنيا والآخرة، إذ إن مطلب كل مسلم أن ينال عفو الله تعالى، وما أحوجنا إلى عفو الله تعالى عنا فذنوبنا كثيرة، وتقصيرنا أكثر منها، ولا ملاذ لنا إلا عفو الله تعالى، نسأله جل وعلا أن يتقبلنا بقبوله الحسن، وأن يشملنا بعفوه الكريم، إنه هو البر الرحيم.

وأما تسمية هذه الليلة بليلة القدر؛ لأنها حازت على قدر كبير وشرف عظيم، فهي ذات قدر كبير، وقد أنزل فيها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2].

كما أنها تقدر فيها أقدار المخلوقات لتلك السنة، وهذا من حكمة الله عزوجل الذي أحسن كل شيء خلقه، وجعل كل شيء عنده بمقدار. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[3].

1- سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله.

2- القدر: 1.

3- الدخان: 3-4.

ومن فضل هذه الأمة الكريمة، أمة الإسلام أن اختصها الله بفضيلة هذه الليلة، فجعل العبادة في هذه الليلة تعدل العبادة في ألف شهر، وهذا تكريم من الله تعالى لرسولنا الأكرم ولأمته الإسلامية التي تراوح أعمارها بين الستين والسبعين.

نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في ليالي عمرنا وأيامه، ويجعلنا ممن يوافق ليلة القدر، وسائر ليالي رمضان، وهو في طاعة الله تعالى، عسى أن نفوز بقدر هذه الليلة ذات القدر العظيم والشرف والخير العميم.

ومن فضائلها :

* أنها ليلة أنزل فيها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ .

* وأنها ليلة مباركة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ .

* وأن الله تعالى يكتب فيها الآجال والأرزاق خلال العام، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ .

* كما أن فضل العبادة فيها يفوق غيرها من الليالي، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [1].

* تنزل الملائكة فيها إلى الأرض بالخير والبركة والرحمة، تطوف على عباد الله القائمين والمستغفرين، وتدعو لهم بالعفو والمغفرة، قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [2].

* كما أنها ليلة خالية من الشر والأذى، تكثر فيها أعمال الطاعة من الخير والبر، وتكثر فيها السلامة من العذاب، ولا يخلص فيها الشيطان إلى ما كان يخلص في غيرها، فهي سلام كلها، كما قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [3].

* وفيها غفران الذنوب لمن قامها إيماناً واحتساباً لقول الرسول ﷺ:"مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ". أما دعاء هذه الليلة المباركة، فأفضله أن ندعو ما علمنا إياه رسول الله ﷺ"اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي".

1- القدر:3.

2- القدر:4.

3- القدر:5.

فتعالوا إخوة الإيمان، يا عباد الرحمن؛ لنقبل على الله تعالى بهمة العابدين، واجتهاد المستغفرين، مخلصين لله في العبادة، نحتسب ذلك عند الله تعالى، عسى أن ننال بركة الدعاء والعبادة في إحياء هذه الليلة المباركة، ليشملنا عفو الله تعالى بغفران الذنوب وستر العيوب، إنه على كل شيء قدير، وهو الذي دلنا على باب كرمه الواسع، وعفوه الشامل بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [1] وهو القائل كذلك: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [2].

اللهم نسألك الإعانة على إحياء هذه الليلة، وسائر ليالي شهر رمضان الفضيل، حتى ننال عفوك ومغفرتك ورضوانك، يا رحمن السماوات والأرض، ورحيم الدنيا والآخرة، يا حي، يا قيوم، بوجهك الكريم نستغيث.

نسألك بعزائم مغفرتك الغنيمة من كل خير، والنجاة من كل إثم، والفلاح في الدنيا والآخرة، اللهم اعتق رقابنا، ورقاب والدينا، ورقاب المسلمين من النار، واجعلنا من عتقائك في شهر رمضان، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، واغفر لنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

وخذ بأيدينا إليك، واقبل بقلوبنا عليك، واجعل تجارتنا رابحة، ولا تخزنا يوم يبعثون، وأظلّنا في ظل رحمتك وعافيتك، فهي أوسع لنا يا رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- البقرة:186.

2- النمل:62.

لما قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، قال:"إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر"[1].

وقد كان للنبي ﷺ هديه الواضح، وتشريعه الحكيم في هذين العيدين اللذيْن أكرم الله بهما هذه الأمة الإسلامية، فمن هديه ﷺ في يوم عيد الفطر أداء صلاة العيد في مصلى العيدين، فقد اتخذ الرسول ﷺ مكاناً خاصاً لأداء صلاة العيدين، وهو ما عرف بمصلى العيدين، إذ كان يخرج عليه السلام إلى هذا المصلى الذي اتخذه في الخلاء خصصياً لأداء صلاة العيدين فيه.

وكان عليه السلام قبل خروجه إلى صلاة عيد الفطر يتناول تمرات، وكان يختارهن وتراً أو يشرب الماء، وفي هذا ما فيه من الدلالة للاحتفاء بعيد الفطر، وأن هذا اليوم يحل فيه الطعام والشراب، لأنه يوم الفطر، ويحرم فيه الصيام والامتناع عن الطعام والشراب، فما دام هذا اليوم هو يوم الفطر؛ فالاحتفاء به يكون بالشروع في تناول الطعام والشراب، وهذه هي سنة المصطفى ﷺ.

كما كان عليه السلام يلبس أجمل ثيابه وأنظفها في يوم العيد، إذ كان له حلة يلبسها للعيدين والجمعة.

ومن هديه ﷺ أنه كان يغتسل يوم العيد قبل خروجه للصلاة.

أما صفة خروجه عليه السلام يوم العيد للصلاة فكان يخرج ماشياً، فإذا وصل المصلى وضع السترة بين يديه، وابتدأ بصلاة العيد لا يسبقها بصلاة، كما لا يصلي بعدها، وكان من سنته عليه السلام تأخير صلاة عيد الفطر، وكان يخرج من بيته مكبراً ويكبر الصحابة رضوان الله عليهم معه، حتى يشرع في الصلاة دون أذان وإقامة، وصفة صلاته عليه السلام أنه يؤدي ركعتين يكبر في الأولى سبع تكبيرات وفي الثانية قبل القراءة خمس تكبيرات، يرفع يديه مع كل تكبيرة، يثني على الله ويحمده

1- المستدرك على الصحيحين 434/1 وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

بين كل تكبيرة وأخرى، وكان إذا أتم التكبير شرع في القراءة، فيقرأ فاتحة الكتاب،ثم يقرأ بعدها سورة ﴿ قۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾[1]، وفي الركعة الثانية سورة القمر ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾[2] وورد عنه عليه السلام أنه كان يقرأ بسورة الأعلى وسورة الغاشية.

وهذه هيئة صلاة العيد، وهناك هيئة أخرى، وهي التكبير ثلاث مرات بعد تكبيرة الإحرام في الركعة الأولى، ثم القراءة، فإذا نهض إلى الركعة الثانية ابتدأ بالقراءة وبعدها يكبر ثلاثاً قبل الركوع ثم يختم الصلاة.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكمل الصلاة قام مقابل الناس وشرع في الخطبة، يعظهم، ويعلمهم، ويوصيهم، ويأمرهم، وينهاهم، وإذا كان يريد أن يبعث بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء من أحكام التشريع أمر به، ولم يكن له منبر في مصلى العيد بل كان يخطب قائماً على الأرض.

يقول الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:"شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعَظَ النَّاسَ، وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ، وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: تَصَدَّقْنَ، فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ، فَقَامَتْ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[3]، سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ[4]، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ"[5].

وهذا يدل على مشروعية خروج النساء إلى مصلى العيد يوم الفطر، ليحضرن الصلاة، ويستمعن للخطبة التي فيها من هدي النبي ﷺ ما يعين الرجال والنساء على الالتزام بهذا الهدي الشريف، كما يتعلمون أحكام هذا الدين، وعلى ذلك مضت السنة.

1ـ ق:1.

2ـ القمر:1.

3ـ المقصود بسطة النساء: خيارهن والوسط العدل، وقيل التي تجلس في الوسط، وقيل ليست من علية النساء، الديباج على مسلم 2 / 458.

4ـ سفعاء الخدين: حمراء الخدين، والسفعة نوع من السواد وليس بالكثير، شرح النووي على مسلم 175/6.

5ـ صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين.

ويروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه قال:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ"[1].

أما الخطبة؛ فكان عليه السلام يفتتحها بالحمد، ولكنه كان يكثر التكبير بين ثنايا الخطبة، كما رخص عليه السلام لمن شهد العيد بالجلوس لسماع الخطبة أو الذهاب، كما رخص لمن حضر العيد في يوم الجمعة ألا يحضر صلاة الجمعة، كما ورد عنه ﷺ:"اجْتَمَعَ عِيدَانِ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"[2].

كما كان ﷺ يعود من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها نحو مصلى العيد، وفي ذلك حكم كثيرة، منها: أنه ﷺ يسلم على أكبر عدد من الصحابة ممن يسكنون بالقرب من الطريقين، كما يقضي حاجة من له حاجة من رعيته عليه السلام.

وفي ذلك ما فيه من إظهار شعائر الإسلام في سائر الفجاج والطرق، وإظهار الفرح بيوم العيد الذي جاء بعد أداء فريضة الصيام في شهر رمضان، وهذا يغيظ الكافرين والمنافقين، يوم يرون عزة الإسلام وفرحة المسلمين بقيامهم بشعائر العيد، بعد أداء فريضة الصيام.

وورد كذلك في الآثار، أن زيادة الخطوات إلى المساجد في الذهاب إليها والعودة منها إلى البيت، تزيد ثواب المصلي، ففي كل خطوة يرتفع درجة، كما تحط كل خطوة خطيئة، حتى يرجع إلى منزله.

وفي التأسي بفعل الرسول ﷺ نحصل الثواب الجزيل، وننال الأجر العظيم، فكل هديه عليه السلام خير لنا في دنيانا وآخرتنا.

1- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

2- سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيما اجتمع العيدان في يوم.

وإننا نعيش في هذه الأيام المباركة، الأيام الأخيرة من شهر الخير والفضل والصيام، ونستعد لاستقبال عيد الفطر السعيد، فعلينا معاشر المسلمين أن نقتدي ونهتدي بهدي نبينا الأسوةﷺ.

فاجعلوا إخوة الإيمان، يا أبناء ديار الإسراء والمعراج من يوم العيد يوماً لإظهار الشكر لله، وحمده، وتكبيره، وتمجيده، وإظهار شعائر هذا الدين العظيم بأداء الصلاة في المسجد الأقصى المبارك، وسائر مصليات العيد في فلسطين.

واحرصوا على التزاور والتآلف والتحابب وصلة الأرحام والبر والإحسان إلى أبناء الشهداء والأسرى والمعتقلين، امسحوا دمعة عن وجه طفل فقد أباه، وازرعوا بسمة على وجه ثكلى فقدت زوجها شهيداً.

واجعلوا من يوم العيد يوماً لتناسي الخلاف، وإنهاء الانقسام من بين أبناء شعبنا في الضفة وغزة، وعودوا صفاً واحداً وموقفاً واحداً، فالذئب يأكل من الغنم القاصية، ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (1).

واجعلوا القدس بوصلة الوحدة والاهتداء نحو مسيرة الحرية المنتظرة لكم ولأسراكم ولتراب هذا الوطن الطهور، وإنكم إن فعلتم ذلك ـ ولا بد أنكم فاعلون ـ فإنكم تحيون سنة نبيكم في أعيادكم التي من أبرز حكمها ودروسها وحدة الأمة في شعائرها ومشاعرها وأهدافها.

والله نسأل في هذه الأيام المباركة، وفي يوم عيد الفطر السعيد أن يحقق الآمال، ويهيئ الخير، ويعجل بعزتنا ووحدتنا وحريتنا وأسرانا من ربقة الاحتلال، إنه سميع مجيب، وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اقتدى واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وتقبل الله منا ومنكم الطاعات

1- آل عمران:103.

ضمن سننه التنفيذية للمبدأ المتضمن في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، شجع الرسول محمد ﷺ، على صيام ستة أيام من شهر شوال، لينال المستجيبون ثواب صيام الحول، فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:"مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ"[2].فسبحانك ربي ما أكرمك، لم تقبل لعبادك وصال الصوم، لكنك تفضلت عليهم بجزائه دون أن يفعلوا حقيقته، فمعلوم أنه ليس من هدي نبينا ﷺ صوم الدهر، بدليل موقفه من ثلاثة نفر الذين أرادوا تجاوز هذا الهدي بإفراط في الطاعات، ففي الحديث"جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا؛ فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[3].

فالعبادة المتقبلة تنبع من الطاعة المطلقة لله، فحين يتوافق الصيام مع هذه الطاعة، يندرج في سياق العبادة الموعودة بعظيم الأجر والثواب، وليست العبرة بعدد أيام العبادة وساعاتها وكمياتها، أما حين يكون الإفطار هو المنسجم مع طاعة الله، فيكون هو العبادة وخلافه ـ أي الصيام ـ معصية وخروج عن إطار العبادة، فصوم رمضان فرض، وإفطار أيام العيدين فرض كذلك، فالمسلم يصوم ويفطر في هذا الإطار، وما عدا ذلك يقع في دائرة الإفراط أو التفريط، يتساوى في ذلك من يفطر

1- الذاريات: 56.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان.

3- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

في نهار رمضان لمن يجب عليه الصوم، مع من يصوم يوم العيد، فالإثنان يشتركان في معصية الله، والانحراف عن جادة الحق والهدي النبوي، فالله يحب أن يعبد كما أمر.

وكأن الرسول ﷺ، يريد أن يلفت الانتباه إلى هذه القضية الجوهرية في معرض بيانه لفضل صيام رمضان والستة من شوال، فالجزاء مرتبط جذرياً بحقيقة طاعة العبد لخالقه، وفْقَ ما أمر، سواء تعلق الأمر بالنسك والشعائر، أم فيما عدا ذلك من أعمال إعمار الكون والزواج والأكل والشرب والعلاقات بين الخلق، والشواهد التي تؤكد ضرورة الانطلاق من هذا المعيار كثيرة، من أوضحها دلالةً على هذا المنحى، ما ورد في الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ويندرج في هذا السياق، ما ورد في حديث الرسول ﷺ، من تأكيد على ترتيب الثواب حتى على إتيان الشهوة في المباح، ففي الحديث" أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"[2].

ووعد الصائم بهذا الجزاء ينسجم مع وعده في الحديث الآخر بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه إن صام رمضان إيماناً واحتساباً، ووعد مقيم ليلة القدر بمثل ذلك، ويفضل كثيرون استخدام الحساب الرياضي في تفسير كيف ساوى صوم ستة من شوال في أعقاب صوم رمضان صوم الدهر؟ فيستشهدون بالنصوص الشرعية الثابتة المتضمنة في بيان مضاعفة الأجور والحسنات، إلى عشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف، وأضعاف كثيرة، فيقول الرسول الأسوة ﷺ:"... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

1- الأنعام: 162.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا"[1].

فمن صام شهراً مكوناً من ثلاثين يوماً يضاعف أجره على أقل تقدير إلى عشرة أضعاف، فتكون المحصلة كأنه صام ثلاثمائة يوم، فإذا ما أتبع ذلك صوم ستة أيام من شوال، فيضيف ستين يوماً أخرى بناء على مبدأ المضاعفة المشار إليه آنفاً، وإذا ما أضيفت الأيام الستين إلى الثلاثمائة السابقة، يكون حاصل الجمع ثلاثمائة وستين يوماً، وذلك يقارب عدد أيام العام، وبالتالي يكون من صام رمضان وستاً من شوال، كأنما صام الدهر.

ومن حكمة صيام الستة من شوال وفوائده، إضافة إلى تحصيل الدرجة المرموقة من فضل الجزاء الرباني، أنها تحف عبادة الفرض المتمثلة بصيام رمضان بصوم أيام ليست مفروضة وإنما مسنونة، ومعلوم أن السنة تجبر بعض ما قد ينتاب أعمال الفرض من نقص وخلل، ومعظم أعمال العبادة المفروضة على العباد، وبخاصة الصلوات الخمس تحاط بسياج من محصنات السنن، فصلاة الفجر مثلاً ركعتان مفروضتان، ومثلهما ركعتان مسنونتان، وهكذا بقية الصلوات فيها الفرض والسنة، وإذا ما نظر لسنة صيام الستة من شوال تلو صيام فرض رمضان، وفق هذا الاعتبار لكان هذا النظر مقبولاً، والله تعالى أعلى وأعلم.

ومن الأحكام الشرعية التي ينبغي مراعاتها لمن يصوم الستة من شوال، الانتباه إلى أنها مستقلة عن صوم رمضان، ولا تعدُّ جزءاً منه، فتركها لا يخل بصومه، وصومها يكون منفصلاً عنه بالعيد وهلال الشهر الجديد، وحكم صومها السنة أو الاستحباب، ولا تصل درجة الوجوب، إلا إذا اقترنت بملزم من نذر أو يمين، أو قضاء.

ومن كان عليه قضاء أيام أفطرها بعذر المرض أو السفر أو الحيض أو النفاس أو غير ذلك من أعذار الفطر في رمضان، فعليه قضاء هذه الأيام أولاً، حتى يعتبر مع من صام رمضان، ثم يصوم الستة من شوال، وذلك إن أراد نيل الأجر الأكمل والثواب الأفضل، وبعض العلماء يشترط سداد القضاء قبل الشروع في سنة الستة من شوال، فالمسارعة في قضاء الدين المستحق أولى من

[1]- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

الانشغال عنه بأداء السنن والنوافل، ففي الحديث القدسي:" قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ، لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"(1).

غير أن من ضاقت به أيام شوال بحيث لا تعود تتسع للقضاء والستة من شوال، فيجوز له تأخير القضاء، والبدء بالستة حتى لا يفوته فضل صيامها، والله تعالى أعلم، ففي قضاء الأيام التي يفطرها أصحاب الأعذار، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(2) وأكد سبحانه هذا المضمون في الآية التالية، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(3) فالله لم يحدد أياماً للالتزام بقضاء أيام رمضان فيها، بل قال على وجه الإطلاق، وليس التقييد "فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ".

وكثيراً ما يتكرر السؤال، وبخاصة من ذوات الحيض والنفاس، اللواتي أفطرن أياماً في رمضان بسبب العذر الشرعي، عن حكم جمع القضاء والستة من شوال في أيام صيام واحدة بنيتين، إحداهما للقضاء والأخرى لصيام السُنة، ونميل إلى منع هذا الجمع، فإما أن تتعلق النية بالقضاء أو بالتطوع والسنة، فالرسول ﷺ، قال: من صام رمضان، أي كل رمضان، وهذا لا ينطبق على الجزء من رمضان، وبناء على ذلك، فإن فضل صوم الستة من شوال يحظى به من قام بهذا الصوم بعد الانتهاء من أداء صوم شهر رمضان كاملاً، إلا من حرص على صيام الستة ولم يجد وقتاً للقضاء وصومها، فيصومها قبل القضاء، والله أعلم.

1- صحيح مسلم، كتاب التوبة، بابفي الحض على التوبة والفرح بها.

2- البقرة:184.

3- البقرة: 185.

ومن صام الستة من شوال في عام لا يلزم بها في الأعوام التالية، بل يبقى مخيراً في صومها أو التخلف عن فعل ذلك، لا كما يظن بعض الناس من أنه إن صامها لزمه صومها كل عام، مع التأكيد على أن من يصومها ويحافظ على ذلك أفضل ممن يتركها من حيث نيل الأجر والثواب، فأفضل الأعمال أدومها.

وبالنسبة لكيفية صيام الستة من شوال، ومتى تصام فيه، فيجوز البدء بصومها في اليوم التالي ليوم عيد الفطر، أي من ثاني أيام شوال وحتى نهايته، ويجوز أن تصام متتالية، أو متفرقة، ولا بأس فيما يفعله بعض الناس من حرص على أدائها أيام الإثنين والخميس من شهر شوال، فالرسول ﷺ ذكر في سياق التشجيع على صومها حرف "من" دون تقييد بأول الشهر أو وسطه أو آخره، ودون تحديد تتابع أو تفريق، أو أيام مخصوصة من الشهر، فتجوز أن تؤدى بناء على ذلك في أي ستة أيام من شهر شوال على الإطلاق، غير أن المسارعة لأدائها أولى، من باب المسارعة لفعل الخير المطلق، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1).

ويتساءل بعض الصائمين عن أكلهم أو شربهم حالة النسيان خلال يوم صوم التطوع، وجواب ذلك أن لا فرق في العفو عمن أكل ناسياً خلال صومه سواء أكان يصوم فرضاً أم تطوعاً، فكلهم مشمولون في قوله ﷺ: "مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ" (2).

سائلين الله العلي القدير أن يجعلنا ممن يحرصون على أداء الفرائض والسنن والنوافل، لننال محبته ورضاه سبحانه، ونفوز بجنة الفردوس، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله الكرام، وصحابته الأبرار.

1- آل عمران: 133.

2- صحيح البخاري ، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان.

لما كان الحج إلى بيت الله تعالى من الفروض العينية، وأحد الأركان العظيمة التي قام عليها الإسلام، فقد بين رسول الله ﷺ هذه الفريضة، وأوضح هذا الركن أيما إيضاح وبيان، في سننه القولية والفعلية.

فمن السنة القولية ما رواه أبو هريرة ﷺ قال:" خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ، فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ"(1).

وفي حديث آخر عن علي ﷺ قال:" لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾(2) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِي كُلِّ عَامٍ؟ قَالَ: لَا، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾(3)"(4).

ومن السنة الفعلية التي بينت أعمال الحج، ما فعله رسول الله ﷺ وهو يؤدي حجة الوداع، في جمع كبير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهي الحجة الوحيدة التي أداها رسول الله ﷺ، وعلم المسلمين فيها أداء المناسك، وخطب خطبته المشهورة في عرفة، وبين فيها كثيراً من أحكام الإسلام، وقال مخاطباً الصحابة، ومن خلالهم المسلمين إلى يوم القيامة:" لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ"(5).

فمن يطلع على حجة النبي ﷺ، ويؤدي حجه كما فعل النبي ﷺ، فقد جاء بأركان الحج وسننه وآدابه على الوجه الأكمل، الذي يوافق فعل النبي ﷺ وقوله، وهو بهذا يكون قد أدى الركن على

1ـ مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

2- آل عمران:97.

3- المائدة:101.

4- سنن الترمذي، كتاب الحج عن رسول الله، باب ما جاء كم فرض الحج.

5- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

الوجه الأكمل، وحاز فضل اتباع النبي ﷺ في أداء العبادة، كيف لا؟! والنبي ﷺ هو المبين لأحكام الشريعة بما اشتملت عليه من عبادات ومعاملات وحدود وأخلاق وعقائد.

ومن حرص النبي ﷺ ورحمته بهذه الأمة حينما سئل عن الحج: أفي كل عام ؟ سكت، وكان جوابه قاطعاً بقوله: لا، أي لا يجب الحج على المسلم في كل عام، وقال في مزيد من الإيضاح؛ لوقلت : نعم، لوجبت، ووضح بأن الأمة تقع في حرج شديد، ولا تستطيع ذلك بقوله:"لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ؛ وَلَوْ وَجَبَتْ، لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا، الْحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ"[1]. فهذه الأحاديث الشريفة بمجموعها تدل دلالة واضحة على أن فريضة الحج تجب على المسلم في العمر مرة واحدة، وتوضح معنى قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

كما بين رسول الله ﷺ معنى الاستطاعة فقال:"مَا يُوجِبُ الْحَجَّ!؟ قَالَ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ"[3].

وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال:" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، وَلَمْ يَحُجَّ، فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[4]"[5].وبين الرسول ﷺ أنه"لَا صَرُورَةَ فِي الْإِسْلَامِ"[6]، ومعنى الصرورة أن لا يحج الإنسان قط.

فمن ملك الزاد والراحلة؛ أي نفقة أداء الفريضة ونفقة أهله في أثناء غيابه، وكان مستطيعاً، وجب عليه الحج.

والاستطاعة بدنية ومالية، فمن كان سليماً، يستطيع أن يتحمل مشاق السفر، ويقوم بأداء الفريضة، وكان يملك النفقة لحجه، وجب عليه أداء الفريضة، ومن كان كذلك، فليتعجل الأداء، لأن الإنسان لا يعلم متى يأتي أجله ؟ والحج لا يتكرر في العام الواحد، بل هو مرة واحدة، بمواقيت محددة.

1- مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن العباس.

2- آل عمران:97.

3- سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب ما يوجب الحج.

4- آل عمران:97.

5- سنن الترمذي، كتاب الحج عن رسول الله، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج.

6- سنن أبي داود، كتاب المناسك ، باب لا صرورة في الإسلام.

كما أن من رحمة الله بهذه الأمة أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها وطاقتها، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] والرسول ﷺ يقول:"... فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[2].

وفي هذه البلاد المقدسة قد أعلنت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية عن بدء التسجيل لموسم الحج لهذا العام ـ إن شاء الله ـ وذلك للبدء بإجراءات ترتيب أداء هذا الركن العظيم وتنظيمه للراغبين بأداء الفريضة في هذا العام.

وفي هذا المقام؛ نذكر أهلنا الذين وفقهم الله لأداء الفريضة أن يفسحوا المجال لغيرهم من الذين لم يؤدوا الفريضة، ليقوموا بالتسجيل لأداء الفريضة دون مزاحمة من إخوانهم الذين أكرمهم الله بأداء الفريضة، وبخاصة إذا علمنا أن العدد المخصص لبلادنا لأداء الفريضة محدود بموجب التعليمات التي تتخذها حكومة المملكة العربية السعودية، لتنظيم أعداد حجاج المسلمين في كل موسم، وفق اتفاق الدول الإسلامية على ذلك.

كما نذكر أن الحج لا يجب إلا على المستطيع مالياً وبدنياً، فالاستطاعة شرط لأداء الفريضة، ومن لا يستطيع ذلك، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3].

فإذا ترك الذين أدوا الفريضة تسجيل أنفسهم، ففي هذه الحالات تكون فرص المستطيعين أكثر، حيث تحديد العدد الراغب في أداء الحج يكون أدق وأقرب إلى حدود الحصة المسموح بها بالحج من بلادنا المقدسة، وفي ذلك تسهيل على القائمين بتنظيم هذه العبادة الإيمانية والروحية، وإفساح المجال لمزيد من التقدم في مجال خدمات حجاج بيت الله الحرام، بتهيئة كل سبل الراحة والعناية بهم على الوجه الأكمل والصورة المشرفة.

نسأل الله تعالى أن يوفق حجاج هذه الديار، وكل حجاج المسلمين لأداء هذه الفريضة على وجهها الأكمل، وفق ما بينه هدي نبينا الأكرم ﷺ ليحوزوا مرتبة الحج المبرور الذي جزاؤه الجنة، كما أخبر بذلك سيد البشرية، ورحمة الله للعالمين، رسولنا وأسوتنا وحبيبنا، محمد صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- البقرة:286.

2- صحيح مسلم ، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر.

3- الحج: 78.

يبين ثواب الحج

18/ ذو القعدة/1430هـ وفق 2009/11/6م

لما كان الحج إلى بيت الله الحرام أحد أركان الإسلام الخمسة، فقد حرص النبي ﷺ على ترغيب المسلمين بالمبادرة إلى أداء هذا الركن، لما لأدائه من ثواب عظيم وأجر جزيل، فقد ورد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال:"فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟! وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟! وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟!"[1].

في هذا الهدي النبوي الشريف بيان واضح لثواب الحج، فهذا الصحابي الجليل عمرو ابن العاص حينما شرح الله صدره للإسلام، وجاء ليعلن إسلامه، ويبايع الرسول ﷺ، فطن إلى أمر مهم، وهو مصيره مع ذاك الشرك والذنوب التي كان عليها في الجاهلية، فأراد أن يشترط لنفسه غفران هذه الذنوب الكبيرة، وقد دخل في الإسلام، فأخبره النبي ﷺ أن من دخل الإسلام هدمت كل ذنوبه السابقة، ولو كانت كزبد البحر أو رمال الصحراء.

لأن الإسلام ـ وهو دين التوحيد ـ يمحو ما كان على معتنقه من ذنوب قبل إسلامه، والالتزام بعقيدته وشريعته، والله تعالى كريم يمن على عباده بالخير والفضل والمغفرة، حينما يلتزمون بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة.

فلا ذنب أعظم من الشرك وكل ذنب دون الشرك يغفره الله تعالى، ويتجاوز عن مقترفه وفق مشيئته تعالى، لقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2].

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.

2- النساء:48.

فالدخول في الإسلام هو ترك للشرك، وإعلان للخضوع والانقياد لله وحده، ومن انقاد لله وحده اتبع أوامره، واجتنب نواهيه، وعاش في سعادة غامرة من الإيمان، وحياة حرة في ظل الإسلام الذي أخبر النبي ﷺ أنه يهدم ما كان قبله من الذنوب والشرك والمعاصي والآثام، ويصبح المرء باعتناقه هذا الدين نظيفاً طاهراً من الذنوب، فعليه أن يحافظ على سجل أبيض نقي من الذنوب والمعاصي، وإذا وقع في ذنب فعليه أن يبادر إلى التوبة والندم والاستغفار، فالله سبحانه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

من هنا جاء الحض على التوبة، لما لها من فضل عند الله تعالى في التجاوز عن ذنب صاحبها. ولذلك جاء في الحديث:"إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ"[1]، فإذا كان اعتناق الإسلام يهدم ما قبله من الذنوب، وكذلك الهجرة التي قام بها النبي ﷺ وصحابته الكرام من مكة إلى المدينة تهدم الذنوب، كما أخبر ﷺ، وإنما كان هذا الثواب للهجرة؛ لأنها جاءت نصرة للدين والرسالة والرسول، فقد تخلى الصحابة الكرام عن الأهل والمال والأوطان، وكل شهوات الدنيا في سبيل نصرة هذا الدين، فهاجروا بهذا الدين، وانتصروا لإسلامهم ولرسولهم ﷺ، فجعل الله تعالى جزاء هذا العمل مغفرة ورضواناً من الله على المهاجرين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[3].

ويأتي بيان فضيلة الحج واضحاً في قول النبي ﷺ:" وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ"، فكما أن الإسلام يهدم ما كان قبله من الذنوب، فكذلك الهجرة إلى مدينة رسول الله ﷺ ـ حيث الرسول

1- سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده.

2- الحشر:8.

3- آل عمران:195.

والمسلمون ودولة الإسلام ـ تهدم ما كان قبلها من الذنوب، وكذلك أداء هذا الركن العظيم من أركان الإسلام يهدم ما كان قبله من الذنوب لما فيه من المشقة وتحمل وعثاء السفر، رغبة في طاعة الله واستجابة لأمره، واتباعاً لهدي نبيه ﷺ الذي قال لنا:"أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا"[1].

وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الحج في العام العاشر للهجرة النبوية الشريفة، فحج ومعه المسلمون، وقد بيّن لنا مناسك هذا الركن العظيم من عبادة الحج، وأمر المسلمين بأخذ المناسك عنه قائلاً:"لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ"[2].

وما دام هذا هو فضل الحج، فاحرص أخي المسلم حيث وفقك الله لأداء هذه العبادة على أن يكون حجك مبروراً، حتى يكون مقبولاً عند الله تعالى، ويهدم ما قبله من الذنوب، لما ورد عن النبي ﷺ:" الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"[3].

وحتى يكون الحج مبروراً فلا بد من إخلاص النية فيه لله تعالى، بعيداً عن الرياء والسمعة والمخيلة، وأن يكون من مال حلال لم يخالطه غشٌ أو غصبٌ أو ربا، وغير ذلك من وسائل الكسب غير المشروعة، وأن يتجنب الحاج ما نهى الله عنه من الرفث والفسوق والجدال أو الاعتداء على صيد الحرم وشجره، فالله يقول: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[4]، والرسول ﷺ يقول:"مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[5].

فمن كان حجه على هذا الوجه الذي أخبر به النبي ﷺ، فإنه يعود من حجه وقد غفر الله له الذنوب، وعاد طاهراً منها كالطفل الذي يولد على الفطرة صفحة بيضاء خالية من أي ذنب.

1- مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين ـ باقي المسند السابق.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

3- مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة .

4- البقرة:197.

5- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

فأعظم بهذه العبادة التي أجزل الله ثوابها بهدم ذنوب صاحبها وخروجه منها طاهراً نقياً بمغفرة من الله وفضل، فليحرص على فعل الخيرات والطاعات حتى يبقى سجله نظيفاً خالياً من الذنوب والمعاصي، وقد فاز بالرضوان وغفران الذنوب، وهدم ما كان منها قبل أداء فريضة الحج.

وقد تعرض العلماء لبيان الذنوب التي يهدمها الحج، فقالوا: إن الحج يكفر جميع الذنوب كبيرها وصغيرها، إذا تاب صاحبها، لأن التوبة مطلوبة من العبد في الحج وغيره، وقد أمرنا الله بها فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]،ووصف من لم يتب بالظالم، فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2].

وأما حقوق العباد فلا بد من إعادتها إلى أصحابها، أو التحلل منهم بالمسامحة.

وصفوة القول ما نص عليه كثير من أهل العلم بأن على الحجاج أن يحرصوا مع الحج على التوبة النصوح، بل قبله ومعه ومع كل موقف، والندم عما سلف من الذنوب، خاصة الكبائر مع العزم على عدم العودة إليها حتى تقبل توبتهم، والتحلل من حقوق العباد، وقطع الخصومات قبل سفرهم لأداء هذه العبادة المباركة.

أما وقد تهيأ حجاج هذه الديار المباركة لمغادرتنا نحو الديار الحجازية لأداء الفريضة، فإننا نوصيهم ونوصي أنفسنا بتقوى الله تعالى، والتوبة النصوح، وأن يحرصوا على أداء المناسك، وفق هدي النبي ﷺ بعيداً عن الرفث والفسوق والجدال والخصومة، وأن يتحلوا بالصبر على مشاق السفر، وعلى إساءات الناس، عسى أن يكون حجهم مبروراً، وسعيهم مشكوراً، فيربحوا تجارة لن تبور، ويعودوا وقد هدم الحج ما كان قبله من الذنوب.

نسأل الله تعالى السلامة والتوفيق والمغفرة لنا ولهم، إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- النور:31.

2- الحجرات:11.

مكث رسول الله ﷺ بعد الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة تسع سنين، ثم أذّن في الناس أن رسول الله عليه الصلاة والسلام حاج، وكان ذلك في العام العاشر للهجرة، فقدم المدينة خلق كثير من المسلمين كل يريد أن يقتدي برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

وسار الرسول الأكرم ومعه الصحابة الكرام نحو مكة المكرمة بلد المسجد الحرام والمشاعر المقدسة لأداء فريضة الحج، وهي المرة الأولى التي يحج فيها رسول الله ﷺ حجة الإسلام، ولم يحج بعدها، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى، ومن هنا سميت هذه الحجة حجة الوداع.

وقد بيّن رسول الله ﷺ بقوله وفعله للمسلمين أركان هذه العبادة وسننها وآدابها، كما بين لهم سائر أركان العبادات من صلاة وصيام وزكاة.

والرسول ﷺ بأدائه المناسك قد ثبت تلك الصفحة المشرقة لشعائر الحج، بعد أن طويت كل التقاليد الجاهلية التي توارثها العرب في موسم الحج من صفير وعري أثناء الطواف، وقضى عليها إلى الأبد، مع القضاء على مظاهر الشرك من أوثان وأصنام، لتبقى الدعوة إلى الحج لبيت الله الحرام قائمة إلى يوم القيامة، تشع بنور التوحيد، وتقوم على أساس العبودية الخالصة لله تعالى، وهذا ما يلمسه المطالع لخطبة النبي ﷺ في عرفة، والمتتبع لأفعاله عليه الصلاة والسلام وهو يؤدي مناسك هذه العبادة.

وما أجمل أن يعيش المرء مع هذه اللحظات الإيمانية التي استشعرها رسول الله ﷺ وهو يرى ثمرة جهده ودعوته بهذه الجموع الحاضرة من المسلمين من المهاجرين والأنصار ومن وفد إلى المدينة، ورافق النبي عليه الصلاة والسلام في حجته هذه ! وفي يوم الحج الأكبر، وعلى سفوح عرفات الطاهر، يلقي رسول الله ﷺ خطبة الوداع على سمع الجموع الغفيرة التي احتشدت حوله من المسلمين، ليخاطب من خلالهم أجيال المسلمين على امتداد الزمان والمكان، مبيناً

الأسس العظيمة والركائز المتينة التي يجب أن يقوم عليها مجتمع الإسلام والمسلمين.

وأول ما يبدأ به رسول الله ﷺ هو دعوة الناس، كل الناس أن يسمعوا قوله، فهو قول الرسول الحريص على أمته، المشفق عليها وعلى البشرية، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (1)

لقد وجه الرسول عليه الصلاة والسلام خطابه للناس بقوله:"أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا، بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ، فَوَعَاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ، إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ"(2)، وكأن رسول الله ﷺ يخبر المسلمين بقرب رحيله عن هذه الدنيا، بعد أن أثمرت دعوته هذا الإيمان، واجتمعت حوله هذه الوفود من أمته التي رباها ثلاثاً وعشرين سنة، غرس فيها الإيمان في النفوس، والتقوى في القلوب، والإخلاص في العمل، والطاعة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين.

وأول ما يوصي رسول الله ﷺ به المسلمين حرصهم على دمائهم وأموالهم، وأنها حرام عليهم إلى أن يلقوا ربهم:"إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"(3)

هذه المحرمات التي راح المسلمون ينتهكونها في فترات البعد عن جادة الصواب، وطريق الإيمان التي أوصى بها رسول الله ﷺ، وهي من أخطر المنزلقات والمتاهات التي انزلقت فيها الأمة.

وإلا فما تفسير الحروب والفتن التي عانت منها الأمة وما زالت تعاني، حيث سفكت الدماء وسلبت الأموال، وكل يدعي من الفرقاء والمتخاصمين والمتحاربين أن الحق بجانبه، ولو طبق هؤلاء وأولئك وصية رسول الله ﷺ فيما بينهم لما انزلقوا في متاهات الفتنة، واقترفوا ما اقترفوه بانتهاك المحرمات من دماء وأموال بعضهم بعضاً، وهم يقرون أن رسول الله ﷺ قد بلغهم بحرمة

1- التوبة:128.

2- سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب الاقتداء بالعلماء.

3- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.

هذا كله، وأكد عليه يوم الموقف الأكبر في عرفات الله، وحوله المسلمون يشهدون بالبلاغ والبيان الذي ملأ سمع الدنيا على امتداد الأجيال.

ويؤكد النبي ﷺ في خطبته أن أمور الجاهلية كلها موضوعة من دماء وربا، فما عاد لهذه الجاهلية أي مظهر في عالم الإسلام والمسلمين، فقد زال الاعتزاز بالأنساب واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وأصبحت كل موروثات الجاهلية تحت الأقدام، فمن أراد العزة، فإن طريقها الوحيد هو التمسك بهذا الدين واتباع أحكامه، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ويزيل الرسول الكريم ﷺ من طريق تقدم البشرية كل ما من شأنه أن يعوق هذا التقدم، ويفتح المجال واسعاً رحباً أمام فكر الإنسان وعقله، ليسير في مدارج الحضارة إلى نهايتها، خدمة للإنسانية وإعلاء شأنها، وهو يقرر" أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ"[2].

كما يخبر رسول الله ﷺ بشكل قاطع أن النسيء في الزمان والتلاعب بالأيام والأشهر قد ولى مع أمور الجاهلية، فقد ثبت الحج في شهر ذي الحجة، وهو كذلك في كل عام إلى قيام الساعة، وإن "الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا"[3].

ويوصي النبي ﷺ في خطبة الوداع بالنساء خيراً، حاثاً الرجال والنساء على قيام كل واحد منهم بواجباته تجاه الآخر، بعيداً عن مظاهر الجاهلية التي كانت تحقر المرأة وتظلمها حقوقها.

وفي كل أمور الحياة يبين النبي عليه الصلاة والسلام أنه ترك للأمة مصدرين مهمّين لعصمتها من الزلل والانحراف، بقوله:"تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ "[4]

1- المنافقون:8.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.

3- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع.

4- موطأ مالك، كتاب الجامع، باب النهي عن القول بالقدر.

إنهما الأمانان للأمة إن سارت على نهجهما واعتصمت بهما، فلا شقاء ولا ضلال في ظل كتاب الله وسنة رسوله، إنما الشقاء في الإعراض عنهما، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[1]

فليراجع المسلمون أسباب ما هم فيه من الفرقة والضعف والشقاء، ألم يسمعوا بلاغ رسول الله ﷺ وهو يحثهم على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وحثه على الاعتصام بهما، ودعوته الصريحة إلى طاعة ولاة الأمر دون النظر إلى نسبهم، بل العبرة بطاعتهم لله ولرسوله، واحتكامهم إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وبعد هذا البيان الشافي الذي يؤكد على الأسس المتينة التي يقوم عليها بنيان الأمة الإسلامية، يستوثق النبي ﷺ لنفسه من الحاضرين ومن خلالهم أجيال الأمة القادمة بالشهادة له بالبلاغ، "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ"[2].

ونحن في زمن تراجع الأمة الإسلامية وحاضرها المؤلم، نشهد سيدي يا رسول الله لك بالبلاغ والأداء والنصيحة، فقد بلغت وبينت لنا طريق النجاح والفلاح التي تنكبتها الأمة، وراحت تضرب رقاب بعضها بعضاً، وقد حذرتها من ذلك بقولك :"لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[3].

اللهم ندعوك بالإخلاص واليقين أن تطفئ الفتن من بين أمتنا، ما ظهر منها وما بطن، وأن تردنا إليك رداً جميلاً، وتهيئ لنا وللمسلمين فرجاً عاجلاً قريباً، يعز فيه أهل ولايتك، ويذلُّ الشرك والمشركون، إنك أهل ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه أجمعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- طه:124.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.

3- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى ومن أحياها.

لما كانت الأضحية شعيرة من شعائر الله، فقد اعتنى رسول الله ﷺ بهذه الشعيرة وعظمها، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[1]،فحث ﷺ المسلمين على أداء هذه الشعيرة، وإحياء هذه السنة الكريمة، سنة سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل ـ عليهما السلام - وسنة سيدنا محمد ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال:"ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا، يُسَمِّي، وَيُكَبِّرُ، فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ"[2]. وقد "أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ يُضَحِّي"[3]

وأجمع المسلمون على أن الأضحية سنة من سنن الإسلام، وهدي من هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

وتعرّف الأضحية بأنها: ذبح حيوان مخصوص بنية القربة في وقت مخصوص.

والحيوان المخصوص ينحصر في : الأنعام؛ وهي من الإبل والبقر والغنم الضأن والماعز، ولا تجزئ الأضحية بغير هذه الأنواع، حيث تكفي الشاة الواحدة عن رب البيت وأهله الذين يشاركونه في الطعام والشراب، وتكفي الأضحية بالإبل أو البقر عن سبعة بيوت يشتركون فيها.

ولا بد من تحقق الشروط الشرعية في الأضحية من حيث السن، والسلامة من العيوب، وكذلك النحر في الوقت المخصص، ويبدأ بعد صلاة عيد الأضحى، ويستمر لغاية آخر اليوم الثالث من أيام التشريق، لا فرق بين ذبح في النهار أو الليل.

1- الحج: 32.

2- صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب من ذبح الأضاحي بيده.

3- سنن الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله، باب الدليل على أن الأضحية سنة.

ويسن في توزيع لحم الأضحية أن تقسم أثلاثاً، ثلث لصاحب الأضحية وأهله، وثلث للفقراء، وثلث للإهداء والأقارب والأصدقاء.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وما من شك أن إهراق دماء الأضاحي يوم النحر وبعده من أيام التشريق هي من القربات، حتى إن العلماء رأوا أن ذبح الأضحية أفضل من التصدق بثمنها لأن القربة والعبادة مرتبطة بأداء هذا النسك، وإظهار هذه الشعيرة من شعائر الإسلام، إذ لو كان التصدق بثمن الأضحية أفضل من ذبح الأضحية لفعل ذلك النبي ﷺ وأصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان، ولم ينقل ذلك.

بل قول الرسول ﷺ وفعله دل على أن الأضحية هي السنة، وليس التصدق بثمنها، فقد رغب الرسول عليه السلام المسلمين بالتقرب بالأضحية، وإظهار هذه الشعيرة في يوم العيد يظهر هذا جلياً في حديث البراء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:"إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ، فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، وَقَدْ ذَبَحَ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَذَعَةً، فَقَالَ: اذْبَحْهَا، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ"[2]

فقد بين النبي عليه السلام أن أول شعائر يوم العيد، هو أداء صلاة العيد، وذلك بعد أداء فريضة صلاة الفجر، حيث إن صلاة العيد من السنن المؤكدة واظب عليها النبي عليه السلام ولم يتركها، وكان يؤديها في مصلى العيد في أطراف المدينة، وكان يحضرها الرجال والنساء والأطفال. ثم يعود إلى بيته، فينحر أو ينحر في المصلى نفسه بعد أداء الصلاة.

1- الحج:37.

2- صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.

وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث وقت النحر الذي يبدأ بعد أداء صلاة العيد، وأن من ذبح قبل أداء صلاة العيد، فإن شاته لا تعتبر أضحية، أي شعيرة من شعائر العيد، بل تعتبر شاة لحم قدمها لأهله وجيرانه، حيث أمر الصحابي بإعادة الأضحية، فذبح جذعة كانت عنده في البيت، هذا وإن في الأضحية حكماً كثيرة، منها:

* إحياء سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل عليه السلام الذي فداه الله بذبح عظيم، بعد أن أسلما وجههما لله، وانقادا لأمره، وقد قص علينا القرآن الكريم قصة المضحي، والأضحية في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ *فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (1)

فقد استجاب سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمر ربه راضياً مطمئناً، وصدع إسماعيل عليه السلام بهذا الأمر صابراً محتسباً، فصدقت النوايا بهذه القربة، فكان الفداء من عند الله بالذبح العظيم، وجرت هذه السنة الطيبة المباركة من لدن سيدنا إبراهيم الخليل وولده إسماعيل، وانتقلت إلى سنة نبينا وحبيبنا وأسوتنا محمد ﷺ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (2)، وقوله تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (3)

1- الصافات: 102-110.

2- آل عمران: 68 – 69.

3- الحج: 78.

* كما أن في الأضحية إدخالاً للسرور إلى الأسرة المسلمة، وفيها توسعة على الأهل والعيال والأقارب والفقراء وصلة للأصدقاء والجيران.

* وقبل هذا وبعده هي شكر لله تعالى على النعمة وفداء وعطاء في سبيل الله الذي منّ على المضحي بالصحة والعافية، وأمد في عمره حتى شهد عيد الأضحى المبارك، وأعطاه من المال ما يؤدي به شكر الله تعالى على هذه النعم، كما أنه يقتدي بهدي المصطفى ﷺ الذي حافظ على هذه الشعيرة، وأقام هذه القربة لله تعالى طيلة حياته، وأوصى المسلمين بذلك، وتبعه الصحابة رضوان الله عليهم بأداء هذه السنة والمحافظة على هذه الشعيرة.

وها هو عيد الأضحى المبارك على الأبواب، فوطنوا أنفسكم أهل هذه الديار المباركة على الطاعة في الأيام الأوائل من شهر ذي الحجة بأداء الطاعات والعبادات من صيام النافلة، وصدقة التطوع، وطيبوا نفساً بالأضاحي يوم النحر، فإنها قربة لله تعالى، واقتداء بسنة نبيكم عليه السلام الذي أمرنا الله تعالى باتباعه ونهج سنته.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال النبي ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ، فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، وَقَدْ ذَبَحَ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَذَعَةً، فَقَالَ: اذْبَحْهَا، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ"

عيد الأضحى المبارك من أيام الله الغراء، يحتفل فيه المسلمون بتوفيق الله لهم بأداء حجيجهم فريضة الحج، كما يتقرب فيه بقية المسلمين إلى الله بالأضاحي اتباعاً لسنة النبي ﷺ، وإحياءً لسنة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام. إذ لما "قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ"(1).

والناظر أخي المسلم إلى هذين اليومين العظيمين من أيام الله في حياة المسلمين، يجد أنهما جاءا في ختام فريضة من فرائض الله، وأداء ركن عظيم من أركان الإسلام.

فعيد الفطر يتوج عبادة الصيام، ويأتي في اليوم الأول من شهر شوال، بعد إتمام المسلمين لصيام شهر رمضان الذي فرض الله صيامه على المسلمين، كما فرضه على الأمم السابقة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (2).

وعيد الأضحى المبارك يأتي في ختام العشرة الأوائل من شهر ذي الحجة، وهي أيام مباركة، جعل الله ثواب العمل فيها جزيلاً، وأقسم بها في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (3).

ومن هذه الأيام يوم عرفة، وهو اليوم التاسع من هذه الأيام، وفيه يقف الحجيج على صعيد عرفات، ليؤدوا أهم ركن من أركان الحج، إذ إن من فاته الوقوف بعرفة، فقد فاته الحج، لقول النبي ﷺ: "الْحَجُّ عَرَفَةُ"(4).

1- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين.

2- البقرة:183.

3- الفجر:1 – 3.

4- سنن الترمذي، كتاب الحج عن رسول الله، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج.

وفي هذا اليوم المبارك وقف النبي ﷺ في عرفة في جبل الرحمة في العام العاشر من الهجرة النبوية الشريفة، وأدى فريضة الحج ومعه الصحابة الكرام، وخطب خطبة الوداع المشهورة، التي بين فيها كثيراً من الأحكام التي تهم المسلمين في حياتهم، فبين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وحرمة الربا كما حث على الإحسان إلى النساء، وحذر من الفتن بين المسلمين، فقال:"لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[1]، وبين لهم بأن عصمتهم في كتاب الله تعالى واتباع سنته ﷺ، فيوم الأضحى الذي يتوج عبادة الحج بنحر الهدي في منى ورمي الجمار، وإتمام مناسك الحج بالطواف بالبيت العتيق، البيت الذي بناه سيدنا آدم عليه السلام مروراً بعهد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ اللذين أعادا رفع البيت على قواعده الأصلية، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [2]

ويسبق يوم النحر التكبير الذي يبدأ من صبيحة يوم عرفة، ويستمر إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق، كما ورد في هدي النبي ﷺ، وصيغة هذا التكبير"الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد"، ويجهر الرجال بالتكبير في الطرقات والمساجد عقب الصلوات المفروضة إظهاراً لطاعة الله ـ وابتهاجاً بالعيد ـ واتباعاً لهدي النبي ﷺ.

وفي يوم العيد يكبر المسلمون وهم في طريقهم لأداء صلاة العيد في المسجد، أو في مصليات العيد في الفلاة، ثم تقام صلاة العيد وبعدها خطبة العيد، التي يعلم فيها الخطيب المسلمين أحكام الأضاحي ووقت نحرها، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله:"إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ، فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، وَقَدْ ذَبَحَ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَذَعَةً، فَقَالَ: اذْبَحْهَا، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ"[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك.

2- البقرة:127.

3- صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.

كما أن الأضحية تنحصر في الأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولا يجزئ غيرها، ويجب أن تكون سليمة من العيوب والأمراض، وفق سن محددة، تعظيماً لشعائر الله ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (1)

ومن هدي النبي ﷺ في يوم العيد الاغتسال والتطيب، ولبس الثياب الجديدة أو النظيفة، فقد كان له عليه الصلاة والسلام حلة يلبسها للجمعة والعيد.

أما النساء إذا خرجن ليشهدن صلاة العيد، فعليهن أن يخرجن محتشمات غير متبرجات، إذ إن الابتهاج بالعيد طاعة، فلا يجوز إفسادها بالمعصية.

ومن هدي النبي ﷺ في يوم الأضحى أنه كان لا يأكل طعاماً حتى يأكل من أضحيته، وهذه هي سنة عيد الأضحى، لمن كان قادراً على الأضحية.

ومن هدي النبي ﷺ في العيد الصلاة مع المسلمين جماعة، فيوم العيد هو يوم اجتماع المسلمين وبهجتهم وفرحتهم بالعيد، والاجتماع من غايات العيد، لما فيه من التآلف والتعارف والمودة بين المسلمين، إذ يسلّمون على بعضهم بعضاً، ويهنئون بعضهم بعضاً بالعيد الذي هو من شعائر الإسلام، ومن مظاهر اجتماع المسلمين ووحدتهم.

ومن هدي النبي ﷺ في العيد أنه كان يأتي المصلى ماشياً، ويعود من طريق أخرى، لما في ذلك من تفقد لشؤون المسلمين ومشاركة أكبر عدد منهم في بهجة العيد، وإظهار عزة الإسلام ووحدة المسلمين، فاغتنموا إخوة الإيمان هذا العيد المبارك الذي حل هذا العام في يوم الجمعة، فاجتمع لكم عيدان في يوم واحد، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺقال:"قَدْ اجْتَمَعَ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا عِيدَانِ، فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ، وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ"(2)

فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى، وعلى فضله الذي لا يستقصى، فاجعلوا أيها المسلمون من هذا العيد حافزاً لعمل الطاعات والاستزادة من العبادات والصدقات والقربات، واجتنبوا كل ما

1- الحج:32.

2- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد.

من شأنه أن ينغص فرحة العيد وبهجته من المنكرات، ولا تسرفوا ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (1)

وتذكروا إخوة الإيمان أن يوم العيد هو بر بالأرحام والفقراء والمساكين، فصلة الأرحام واجبة، وقد جعل الله "الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، مَنْ قَطَعَكِ، قَطَعْتُهُ"(2)

فاعملوا على صلة الأرحام، وفرجوا كرب الفقراء والمساكين والمحتاجين، وتفقدوا بيوت الأرامل وأسر الشهداء والمسجونين، وافعلوا الخير لعلكم ترحمون. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (3) فاغرسوا البسمة على وجه الفقير، وامسحوا ألم طفل فقد أباه، أو ثكلى فقدت زوجها شهيداً، وبقيت ترعى أبناءها وفاءً للشهادة.

واعملوا على إعادة الوحدة بين أبناء هذا الوطن من خلال مصالحة تطوي كل آلام الفرقة، وتعيد اللحمة بين أجزاء الوطن، واجعلوا من العيد انطلاقة نحو تحقيق أهداف شعبكم وأمتكم، لتكونوا الجديرين بوسام الرباط في هذه الديار المباركة، وأهلاً لحراسة مقدساتها وسدانتها، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، واعملوا وفق هدي نبيكم عليه الصلاة والسلام حتى تفوزوا برضوان الله تعالى، وتكونوا الجديرين باتباع هدي رسولنا الأسوة في العيد وسائر أيامكم.

أعاد الله علينا وعلى أمة المسلمين هذا العيد بالخير واليمن والبركات وعزة الإسلام والمسلمين، وقد تحررت ديار الإسراء والمعراج من ظلم الاحتلال، وغدت مشرعة لأهل الإيمان في ظل سماحة الإسلام وحلاوة الإيمان.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الأعراف:31.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله.

3- البقرة: 110.

الفصل الخامس

الأسرة والمجتمع		
30	يضع أسس المجتمع الإسلامي	122
31	يكرم العامل	127
32	يحث على بر الوالدين	131
33	يحذر من عقوق الوالدين	135
34	يحث على الزواج	141
35	يرشد لضبط قضية التعارف قبل الزواج	145
36	يحذر المرأة من طلب الطلاق	151
37	يدعو إلى نبذ العصبية	155
38	هديه في العفو	158
39	هديه في تراحم المسلمين	162
40	يخبرنا عن منزلة كافل اليتيم	166
41	يحرم الاعتداء على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم	169
42	يبين حرمة دم المسلم	173

معلوم أن النبي عليه السلام هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته الكريمة، مخلفاً وراءه ذاك المجتمع الجاهلي الذي كفر بكل ديانات التوحيد وآخرها الدين الإسلامي، الذي بعث الله به نبينا عليه الصلاة والسلام.

فعلى الرغم من حرص النبي ﷺ على هداية قومه في مكة، وجمع كلمتهم على هذا الدين العظيم، فإنهم ناصبوه كل أنواع العداء، وألحقوا باتباعه من المسلمين كل أصناف العذاب مما جعل النبي ﷺ يأذن لأصحابه بالهجرة أولاً إلى الحبشة، ثم بالهجرة إلى المدينة المنورة، التي تقبل أهلها إخوتهم من المسلمين ورحبوا بهم، ووسعوهم في قلوبهم وبيوتهم.

ولما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وبركت ناقته في مربد لغلامين يتيمين في المدينة، باشر على الفور ـ بعد شراء المكان من أصحابه ـ ببناء مسجده النبوي الشريف في المدينة، وهو أول عمل يقوم به النبي ﷺ بعد هجرته، لإدراكه عليه الصلاة والسلام لأهمية المسجد في حياة المسلمين.

فكان بناء المسجد هو الأساس الأول الذي وضعه النبي لإقامة المجتمع الإسلامي في المدينة.

كيف لا ؟ والمسجد هو المكان الإيماني والروحي الذي يجتمع تحت سقفه أهل الإيمان، وجنود الإسلام من المهاجرين والأنصار الذين ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1].

والنبي ﷺ بعمله هذا يؤسس الركيزة الأولى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، فإن رسوخ المجتمع وقبوله وانخراطه في النظام الإسلامي يحتاج إلى صقل العقيدة وتقوية أواصر الإيمان في النفوس، وهذا هو دور المسجد الذي يقوم بإمامته الرسول الأكرم ﷺ، ويلتقي أصحابه فيه خمس مرات في اليوم، يعلمهم ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن الكريم، في جو المسجد

1- المائدة:119.

الإيماني الذي يجتمع فيه المسلمون، فيشعرون بوحدة صفهم وكلمتهم، وتشيع بينهم آصرة الأخوة والمحبة التي يدعو إليها نظام الإسلام، إذ تتلاشى في المسجد فوارق الجاه والمال والعشيرة، لتحل محلها روح التآخي والألفة الإيمانية.

كما أن روح العدالة والمساواة بين المسلمين التي يحتاجها مجتمعهم مكان ترسيخها في المسجد، الذي يقف فيه الجميع على قدم المساواة أمام الله تعالى في صف واحد وصلاة مشتركة، ترتفع بأصحابها إلى غايات الكمال البشري الذي ينشده مجتمع الإسلام، ويدعو إليه الدين الإسلامي، في رحاب الأخوة الإيمانية، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1]"... الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ..."[2]

وفي المسجد ورحابه ينخرط المسلمون في وحدة راسخة تتمسك بحبل الله المتين وشرعه الحكيم، وتغدو هذه الوحدة ميزة ثابتة للمجتمع الإسلامي في جميع أحواله وفي كل شؤونه.

كما أن المسجد مدرسة العلم، وبيت الدولة، ومركز القيادة، ودار الضيافة، واستقبال الوفود القادمين إلى المدينة للاجتماع بالرسول الأكرم ﷺ.

فهذه المهمات جميعها تتحقق في المسجد، ولذلك حرص النبي ﷺ على أن يجعل بناء المسجد أول أساس يقوم عليه المجتمع الإسلامي، وما زال المسجد يحقق هذا الدور، إذا أحسن المسلمون القيام به دون حصر دور المسجد على أداء العبادة فقط، فقد تخرج من المسجد من أضاءوا الدنيا بنور الإسلام، وانطلقت رايات الجهاد من رحاب المسجد تنشر العدل والرحمة بين العباد، وترفع عن صدورهم أغلال الطغاة والمتجبرين من زعماء امبراطوريات الكفر والإلحاد.

أما الأساس الثاني الذي أقام النبي ﷺ المجتمع الإسلامي عليه؛ فهو الأخوة بين المسلمين، فقد آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار في رباط من الأخوة الإيمانية التي فاقت آصرة الدم والنسب والقبيلة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون فيما بينهم بحكم هذه الأخوة

1- الحجرات :10.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

التي تقوم على الإيمان والولاء والعقيدة، ولم ينسخ التوارث بين المهاجرين والأنصار إلا في العام الثاني للهجرة، بعد وقعة بدر الكبرى، حيث نزل قول الله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1]

وتظهر فوائد هذه الأخوة في متانة بناء المجتمع والدولة، فلا يمكن ـ بحال ـ أن تقوم دولة، وتنشأ أمة، إلا إذا قامت على أساس الوحدة والإخاء والمساندة بين أفرادها، هذا التآخي الذي يقوم على رابطة متينة من العقيدة، التي أقامت أروع نظام اجتماعي في العالم يحقق العدل والمساواة بين أفراده، وينطلق من روح العقيدة التي جمعتهم في المسجد، وفي مناحي الحياة كافة، حتى وصل الأمر بالواحد منهم أن يؤثر أخاه على نفسه، وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف العظيم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2].

ومن هنا ندرك أن التآخي الذي أقامه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار لم يكن شعاراً مجرداً، بل كان حقيقة واقعة، وأساساً راسخاً، وتحملاً كاملاً للمسؤولية الجماعية لإقامة المجتمع الإسلامي.

وهذا ما أظهرته الوقائع العملية بين المتآخين من المهاجرين والأنصار، حيث كان الأنصاري يتقاسم مع أخيه المهاجر بيته وماله عن طيب نفس منه.

وبهذا المجتمع المتآخي والمتكافل رسخ النبي ﷺ الأسس المتينة لإقامة الدولة الإسلامية الأولى، ومجتمع المسلمين الأول، الذي يعد أنموذجاً يحتذى على مدى الدهور لإقامة المجتمع الإسلامي، وبناء دولة المسلمين، انطلاقاً من روح المسجد، وأخوة الإيمان، والاحتكام إلى شرع الله في كتابه الكريم وهدي نبيه الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما الأساس الثالث لبناء المجتمع المسلم، فكان كتابة الوثيقة التي نظمت حياة المسلمين وغير المسلمين من رعايا الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

1- الأنفال:75.

2- الحشر:9.

فقد كتب رسول الله ﷺ وثيقة المدينة المشهورة التي تعد تنظيماً دستورياً وفق ما تفسره القوانين اليوم، فقد نظم رسول الله ﷺ الحياة بين المهاجرين والأنصار، ومن اتبعهم من المسلمين، وبين غيرهم من أتباع الأديان؛ وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، فوادع اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.

ومما ورد في هذه الوثيقة:

1ـ الْمُسْلِمونَ مِنْ قُرَيْشٍ ويَثْرِبَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ، فَلَحِقَ بِهِمْ، وجَاهَدَ مَعَهُمْ، إنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

2ـ هؤلاء المسلمون على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويتعاقدون بينهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

3ـ ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض، دون الناس.

4ـ اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.

5ـ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ[1] إلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

6ـ كل ما كان بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إلَى اللَّهِ ﷻ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

7ـ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ، إلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ.

8ـ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى.[2]

هذه الوثيقة التي اعتبرت الأساس الثالث من أسس قيام المجتمع الإسلامي، وهي بحق وثيقة دستورية بأكمل ما تحمل هذه الكلمة من معان في تنظيم أسس الحياة في الدولة الإسلامية، وضمان جميع حقوق المواطنين فيها، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

فهي تحقق العدالة وحقوق المواطنة للجميع، وأي خلاف مرده إلى حكم الله تعالى وهدي رسوله، وهذه ضمانات حقيقية لتحقيق العدل والإحسان والمساواة بين رعايا الدولة، إذ حرصت على رعاية

1ـ يوتغ: يهلك، النهاية في غريب الأثر 148/5.

2ـ سيرة ابن هشام، 35/3.

قيم العدالة والمساوة، ليس بين المسلمين فحسب، بل بينهم وبين من جاورهم، أو عاش معهم من أتباع الأديان.

وهذا واضح في وثيقة المدينة المنورة، حيث كان الغدر من جانب اليهود الذين تآمروا على الدولة الإسلامية وعلى نبيها، مما أضطر المسلمون إلى قتالهم وإخراجهم من المدينة.

ولعل العهدة العمرية التي أمّن فيها عمر بن الخطاب ﷺ أهل القدس من النصارى على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، تنطلق من روح الوثيقة النبوية في المدينة، هذا العيش المشترك الذي حافظ عليه المسلمون والنصارى على امتداد أربعة عشر قرناً، ولم ينغصه إلا الاحتلال الإسرائيلي الذي يزعم أتباعه أنهم يسيرون على شريعة موسى عليه السلام، وشريعة موسى منهم براء، فلم تقر شريعة من الشرائع ظلم الإنسان، وسلب أرضه وماله، كما يفعل هذا الاحتلال بحق الأرض الفلسطينية وأهلها، لا بل وصل به الأمر إلى قيام مستوطنيه بالاعتداء على المقدسات، وفي مقدمتها المسجد الأقصى المبارك، وما حَرْقُ مسجدِ ياسوف في الأيام القريبة الماضية عنا ببعيد.

إنه الإسلام ورسوله الأمين يقيم المجتمع الإسلامي على أسس التقوى ومبادئ الأخوة والعدالة والمساواة، فليأخذ المسلمون هذا الدرس من هجرة المصطفى ﷺ، ونهجه ليعود للعالم معنى العدالة وإنسانية الإنسان المهدورة.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ..."

يحتفل العالم اليوم بيوم العمال، أو عيد العمال، كما اصطلحوا على تسميته، وقد اتخذوا من الأول من شهر أيار من كل عام يوماً للعمال، أو عيداً لهم، يذكرون فيه نضال العمال من أجل الوصول إلى حقوقهم، ويشيدون بجهود الاتحادات والنقابات المهنية، التي تسعى إلى تحسين أحوال العمال، من حيث الأجور، وساعات العمل، والتأمينات الصحية والاجتماعية والنقابية، وغير ذلك من الأمور التي تخص العامل.

ولم تأت هذه الحقوق، أو تحصل هذه الامتيازات، إلا بعد صراع طويل بين العمال وأرباب العمل؛ من الاحتجاجات والإضرابات، والاضطرابات، التي أثرت وتؤثر على مجرى الحياة، في مرافق الدول.

وكلما استطاع العمال أن يحققوا شيئاً من الامتيازات أو الحقوق، اعتبروا ذلك انجازاً لهم، وثمرة لجهودهم، في طريق تحقيق المزيد من المكاسب والحقوق.

فما هي نظرة الإسلام الحنيف إلى العمال وحقوقهم؟

لقد كفل هذا الدين ابتداءً حق الإنسان في الحياة، والعمل، والتملك، وكسب العيش الكريم بالطرق المشروعة، التي بيّن الدين حدودها وأحكامها، ونظم ذلك تنظيماً دقيقاً، يتماشى مع أهداف هذا الدين الذي يسعى إلى تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولا أدل على اهتمام الإسلام بالعامل، والحث على العمل، من ذكر كلمة العمل أو العاملين بكثرة في كتاب الله تعالى، فقد ورد ما يزيد عن ثلاثمائة آية في القرآن الكريم، تتحدث عن العمل والعمال، تبين المثوبة، والجزاء، وحدود المسؤولية، كما قرن العمل بالإيمان في كثير من آيات الكتاب الكريم، وفي هذا ما فيه من اعتبار لمكانة العمل، وبيان لشأنه في حياة الإنسان،

من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾[2].

وقد حث الإسلام بشكل واضح وصريح على السعي والعمل، وحذر ونهى عن البطالة والكسل، ونهى عنهما، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

فانظر أخي المسلم ـ هداك الله إلى خير العمل ـ كيف قرن إسلامك العظيم بين العبادات والعمل، وأقام توازناً بين حاجات الروح والبدن، في نظام يقوم على الإيمان والحث على العمل والإنتاج، ويقدم الخير للإنسان والحياة.

وهذا رسول الله ﷺ يصف من خرج يسعى على أهله لتأمين قوتهم بأنه في سبيل الله "إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان "[5].

فأي تكريم للعامل أبلغ من هذه المنزلة التي وصفها رسول الله ﷺ، وهو النبي والرسول الذي يبلغ دعوة، وينشر ديناً ويقود أمة، ويؤسس دولة، تنظم جوانب حياة رعاياها كافة، ومنها صيانة حق العامل ورعايته وتكريمه، وإيجاد فرص العمل الملائمة له.

1- الشعراء:227.

2- البقرة:277.

3- الملك:15.

4- الجمعة: 9-10.

5- رواه الطبراني في الكبير وقال في مجمع الزوائد 325/4 رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الألباني في صحيح الجامع عن كعب بن عجرة 2 / 8.

إذ إن من واجبات الدولة الإسلامية أن توفر فرص العمل للقادرين عليه، وهي مسؤولية عظيمة تقع على عاتق الدولة.

كما أن نطاق العمل يتسع في ظل دولة الإسلام ليشمل النشاطات التجارية والزراعية والصناعية، وهي أركان الاقتصاد في كل أمة، فقد أشار القرآن الكريم إلى عمارة الأرض واستغلالها وزراعتها، فذكر أنواعاً من المزروعات، وكيف تنشأ منها جنات معروشات وغير معروشات، وضرب على ذلك مثلاً سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[1].

وذكر الإنسان بأن يشكر الله إذا أنعم عليه بزراعة وفيرة، فذكر صاحب الجنة الذي غمط نعمة ربه فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾[2].

والرسول ﷺ يوجه المزارع إلى الاهتمام بزراعته بقوله:" مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"[3].

ويوجه العامل إلى الكد والجد في تحصيل قوته، بقوله:" مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[4].

ويحث على العمل في التجارة، وأن التاجر الصدوق له منزلة عظيمة عند الله تعالى، فيقول ﷺ:"التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ "[5].

كما حث إسلامنا على الصناعة، وندب الأمة إلى ذلك، يقول تعالى بحق داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[6]، والرسول ﷺ يقول:"إِنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عليه السلام كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[7].

1- سبأ:15.

2- الكهف:35.

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الإنسان والبهائم.

4- صحيح البخاري، كتاب البيوع، كسب الرجل وعمله بيده.

5- سنن الترمذي، كتاب البيوع عن رسول الله ، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي إياهم.

6- الأنبياء:80.

7- صحيح البخاري، كتاب البيوع، كسب الرجل وعمله بيده.

وهكذا يوجه رسولنا الأسوة ﷺ الأمة إلى القيام بكل ما يلزم لمسيرة الحياة، من نشاط زراعي وصناعي وتجاري، ويوجه العمال في هذه القطاعات وغيرها إلى الإخلاص في النية وإتقان العمل، بقوله عليه الصلاة والسلام:"إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه "[1].

كما يجب على الأمة أن ينهض من بينها من يتعلمون كل ما يلزم لحياة الأمة، ونفع المجتمع من حرف ومهن وصناعات، وجعل ذلك من فروض الكفاية، إذا لم يقم به بعض الأمة تأثم بمجموعها. والأمة الناجحة هي التي تأكل مما تزرع، وتلبس مما تنسج، وتحمي نفسها بما تصنع، وهذا ما يسمى بالاكتفاء الذاتي، إذ بدونه تبقى الأمة عالة على غيرها، تتحكم بها الأمم أو الدول، وفق ما يخدم مصالح تلك الدول.

وإذا كان العمل من أشرف وسائل الكسب، فلا بد أن يكون العامل على بينة بأنه مسؤول عن عمله أمام الله، ثم أمام رب العمل في الوقت الذي يطالب رب العمل بوفاء العامل أجره دون غبن أو ظلم :" أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ"[2].

هذا هو الإسلام العظيم يبين حق العامل، وهذا رسولنا الأسوة ﷺ يكرم العامل، ويوصي به، وينهى عن تكليفه فوق طاقته، فيقول:"... وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ" [3].

فلو أخذ العالم بهذه المبادئ السامية، ما احتاج العمال إلى نقابات، أو اتحادات، أو إضرابات، لينالوا حقهم الذي كفله الإسلام ابتداءً، فأعطى كل ذي حق حقه، بضمان الأجر وتوفير العمل وصيانة الكرامة.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

1- أخرجه الألباني في صحيح الجامع، وحسنه 383/1.

2- سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب أجر الأجراء.

3- صحيح البخاري، كتاب العتق، باب قول النبي العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم يحث على بر الوالدين

23/ربيع الأول/1430هـ وفق 2009/3/20م

اتخذ العالم من اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار، يوماً للأم، أو عيداً لها، وقد انتشرت هذه البدعة في مجتمعاتنا الإسلامية، فراح الناس يتخذون من هذا اليوم عيداً يزورون فيه الأمهات، ويقدمون لهن الهدايا تقليداً للغرب، أو تشبهاً بهم، ظناً من هؤلاء أن براً وإحساناً للأم في هذا اليوم، يغني عن التقصير بحقها في سائر أيام السنة، لمن يقصرون بحق أمهاتهم وآبائهم.

ولو وقف المحتفلون في عيد الأم على مدى العناية التي أولاها الله سبحانه وتعالى للوالدين، لوجدوا أن كل أيام العام هي أيام للبر بالوالدين، والإحسان إليهما، فالله يقول: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[1] والرسول ﷺ يقول فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ"[2].

فانظر أخي ـ هدانا الله وإياك ـ في هذا القول البليغ لرسول الله ﷺ، وهو يجيب السائل عن أحق الناس بحسن الصحبة، والرعاية، والإحسان، والتودد إليه وبره، والقيام بشأنه وخدمته، إنها الأم، وحينما سمع السائل بهذا الجواب، أحب الاستزادة فيمن يجب عليه أن يشمله بحسن صحبته، فأكد رسول الله ﷺ على حق الأم في حسن الصحبة، وكرّر ذلك مرتين، وما ذلك إلا لمزيد العناية بالأم، والحث على حسن صحبتها وبرها، ثم يكمل ﷺ جوابه للسائل أن أحق الناس بحسن الصحبة، والرعاية، بعد الأم هو الأب، فهما أرحم الرحماء بين الخلق، وهما أولى القرابات بحسن الصحبة والرعاية، وقد قرن الله تعالى الإحسان للوالدين بعبادته تعالى، وفي هذا

1- الإسراء:23.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

ما فيه من الحث على بر الوالدين والإحسان إليهما، وأن رضا الوالدين من موجبات رضا الرب، وسخطهما من موجبات سخطه، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله رضاه ورضا الوالدين وبرهما على الوجه الذي يرضي الله ورسوله، ويقود إلى الفوز في الدنيا، والنجاة في الآخرة من النار.

لقد أولى الإسلام الوالدين كل العناية والاهتمام، وذكر الإنسان بإحسانهما وبرهما له حالة ضعفه، وفي طفولته، فهما الساهران إذا مرض، والمتابعان لنموه يوماً بيوم، يغذيانه بجانب الحليب الذي يقيم أوده، بحنانهما وعطفهما، ويحدبان عليه حتى يشب عن الطوق، ويعتمد على نفسه في عباب بحر هذه الحياة، ومع هذا كله يبقى حرصهما وبرهما ورضاهما يطوق عنقه، ويرقب مسيرته، ماداما على قيد الحياة، وهذه سنة الله في الوالدين.

وتأتي الآيات الكريمة تحث على رعاية الوالدين، وتذكر الأبناء بما تعانيه الأم في مراحل الحمل والرضاع، وما يرافق ذلك من جهد ومشقة، فالله يقول: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ*وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]، فالله تعالى أنعم على الإنسان بالخلق والرزق، وبنعم لا تحصى، ومن هذه النعم رحمة الوالدين بالأبناء، ومحبتهما لهم، مما يستوجب شكر الله تعالى، ثم شكر الوالدين على ما أسجوه من رعاية للأبناء.

كما أن الإسلام أمر ببر الوالدين، وإن كانا على خلاف دين الابن، فأي رعاية أعظم وأكرم من هذه الرعاية التي أولاها الله تعالى للوالدين، وأي وصية أبلغ من وصية رسول الله ﷺ لمن كان له والدان، وأحب أن يلتحق بجيش المسلمين ليجاهد، فقال له رسول الله ﷺ: "ألك

1- لقمان:14-15.

وَالِدَانِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ"[1]، فسوى رسول الله ﷺ بين فضل الجهاد، وفضل رعاية الوالدين والإحسان إليهما.

والآيات الدالة على رعاية الوالدين كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[3].

ولا يقتصر بر الوالدين على الإحسان إليهما حال حياتهما، بل يتعدى إلى صلة أرحامهما، والإحسان إلى أصدقائهما، والدعوة لهما، لقول الرسول ﷺ:"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ؛ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ"[4].

وقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت:" إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ، أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟! اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ " [5].

ومن المأثور أن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، رأى رجلاً يحمل أمه على ظهره، وهو يطوف بها حول الكعبة، فقال:" يا ابن عمر أتراني وفيتها حقها، قال: ولا بطلقة واحدة من طلقاتها، ولكن قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً".

1ـ سنن الترمذي، كتاب الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء فيمن خرج في الغزو وترك أبويه.

2ـ البقرة:83.

3ـ النساء:36.

4ـ سنن الترمذي، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب في الوقف.

5ـ صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة.

وكما أمر الله ببر الوالدين، وجعل طاعتهما طريقاً للنجاة في الآخرة، وسبباً لدخول الجنة، وجعل عقوقهما من موجبات غضب الله ومن الكبائر، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:" يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ"(1).

كما نهى رسول الله ﷺ عن التسبب بإيذائهما، وذلك من خلال إيذاء الآخرين، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال:" إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؛ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ "(2).

هذا هو الإسلام، وهذا هو رسول الإسلام ﷺ، يحثان على بر الوالدين ورعايتهما، ويخصان الأم بكل المحبة والتقدير في جميع أيامها، وعلى مدى حياتها، لا في يوم واحد، ما أنزل الله به من سلطان.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن اتبع هديه، واقتفى سنته، إلى يوم الدين.

قال الرسول ﷺ: " إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلَاثَةٍ إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له" (صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ من الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ).

1ـ صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

2ـ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه.

حظي موضوع بر الوالدين باهتمام مميز من رسولنا الأسوة ﷺ، سواء في جانب الحث على برهما، أم على صعيد التحذير من عقوقهما، وتواصلاً مع حلقتنا السابقة التي عرّجت على بعض مجالات بر الوالدين، فأبرزت أهمية البر ومكانته، فيما تيسر الاستشهاد به فيها من آيات القرآن الكريم، وما تضافر معها من أقوال رسولنا الأسوة ﷺ وأفعاله، وتأتي حلقتنا هذه بمزيد من الشواهد التي تُظهر بشكل جلي لا لبس فيه، أن إسلامنا الحنيف عني أيما عناية ببر الوالدين، ولم نكن بحاجة لتخصيص مناسبة سنوية للاحتفاء بهما أو بأحدهما، اللهم إلا إذا كنا مولعين بهوس التقليد الأعمى لسنن غيرنا وعاداتهم.

ونود في هذا المقام أن نعيش في ظلال توجيه رسولنا الأسوة ﷺ، في التحذير من عواقب عقوق الوالدين، والعياذ بالله العلي العظيم من ذلك، ففي الحديث الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، أجاب جبريل عليه السلام عن علامات يوم القيامة، حين جاء يسأله أسئلة عدة في معرض تعليم المسلمين دينهم، ومن بيانه ذاك قوله: "أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا "[1] وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى : "رَبَّهَا" عَلَى التَّذْكِيرِ. يقول النووي: وَمَعْنَى رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا؛ سَيِّدَهَا وَمَالِكَهَا، وَسَيِّدَتَهَا وَمَالِكَتَهَا[2].

وفي سياق شرح ابن حجر العسقلاني لوجوه محتملة للمراد بولادة الأمة ربتها في هذا الحديث الشريف، يقول: أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته، من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام . فأطلق عليه ربها مجازاً لذلك[3] . فليس غريباً إذن أن يجعل العقوق علامة فارقة دالة على قرب قيام الساعة، فهو من الفظاعة والبشاعة بمكان كبير.

1ـ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

2ـ صحيح مسلم بشرح النووي 158/1.

3ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري 123/1.

وعلى العكس من ولادة الأمة ربتها، فإن رسولنا الحبيب ﷺ، بيّن منزلة الوالد من الولد، فأوضح أنه مهما بلغت مكانة الولد، ومستويات بره لوالديه، فإنه لن يتمكن من الوفاء لهما بكامل حقوقهما عليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ"[1]. بل إن رسولنا الأسوة ﷺ، ساق حديث "جريج" للمسلمين لينبههم إلى مقام بر الوالدين، وخطورة عقوقهما بالإزعاج أو المضايقة، أو غير ذلك من أساليب الأذى، حتى لو سولت للمرء نفسه تسويغ هذا الأذى بحجج وذرائع تحمل في ظاهرها الصلاح والخير، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ؛ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ. فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا، وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ. فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ، أَتَى الصَّبِيَّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ، يُقَبِّلُونَهُ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا "[2]. ويتوافق مع دلالات حديث جريج، توجيهه ﷺ لمن

1- صحيح مسلم، كتاب العتق، باب فضل عتق الوالد.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.

جاءه طالباً المشاركة في جهاد فرض الكفاية، كما ورد في حديث عَبْد اللَّه بْن عَمْرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رجلاً جاء إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ:" أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ"[1].

وفي رواية في صحيح مسلم، عن عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص، قَالَ:" أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّه ﷺ، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّه. قَالَ: فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا. قَالَ: فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّه؟ قَالَ : نَعَمْ. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا"[2]. ويذكر ابن حجر العسقلاني عن جُمْهُور الْعُلَمَاء: أنه يَحْرُم الْجِهَاد ـ في حال كونه فرض كفاية ـ إذا منع الأبوان، أو أحدهما، بشرط أن يكونا مسلمين، لأن بِرّهمَا فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية[3].

وفي مقابل حديث جريج سالف الذكر، يرد حديث الثلاثة نفر، الذي ساقه النبي الأسوة ﷺ للمسلمين، ليبين لهم من خلاله فضل بر الوالدين، في الحياة الدنيا، تمهيداً للجزاء الأوفى في الآخرة، ففيه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ، قَالَ: "بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ، أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا، لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ، شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ، فَحَلَبْتُ، بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا، قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ ،فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا،أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ، حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين.

2ـ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به.

3ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري 140/6 – 141.

أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً، حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ...."[1].

فقد صَلُحَ البر لأن يكون سبباً في تفريج الكرب، وتحصيل النجاة لمن ابتغى وجه الله في الإحسان لوالديه، أحدهما أو كليهما.

وليس من قبيل المصادفة أن يعمد أئمة الحديث، إلى عنونة بعض أبواب كتبهم، بما يشير صراحة إلى فضل البر، وبشاعة العقوق، فمن أبواب صحيح البخاري، رحمه الله، باب الجهاد بإذن الأبوين، و باب إجابة دعاء من بر والديه، وفي صحيح مسلم، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، وباب بر الوالدين وأنهما أحق به. وهؤلاء الأئمة تتلمذوا في مدرسة الرسول الأسوة ﷺ، فانصب عملهم وتركز على رواية حديثه ﷺ، الذي وجدوا فيه الاهتمام البارز بقضية بر الوالدين، والتحذير الواضح من عقوقهما. ومما يلفت النظر بخصوص التوصية بحقوق كل من الوالدين والأبناء، في ضوء الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، بروز الغلبة الواضحة للتوصية بالوالدين على التوصية بالأبناء، في دلالة إلى طبيعة الطرفين، ففطرية العطف الموجودة في الآباء والأمهات نحو الأبناء، أقوى مما لدى الأبناء نحو الوالدين في المجال نفسه، والرعاية بحاجة لكسب وتعلم وتربية في الأبناء نحو الآباء والأمهات أكثر من حاجة الوالدين لتعلمها أو التوصية بها نحو أبنائهم. ومن الأمور الطبيعية المشاهدة، أن الوالدين يقدمان الرعاية للولد، وهما يصبوان إلى أن يشاهدانه يافعاً قوياً، بينما يرعى الولد والديه، وهما في طريق عودتهما للضعف والموت، وشتان بين الحالين. فرعاية الأبناء تنبع من معين فطري لدى الآباء والأمهات، فالأم تحمل الابن في أحشائها وهناً على وهن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [2] وتضع الأم الحامل مولودها في خضم المعاناة والتعب والمخاطرة على نفسها، في حال وصفها

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه

2- لقمان:14.

القرآن الكريم بالكره، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا . . . ﴾[1] .

وعلى الرغم من ذلك، فهي تفدي وليدها بروحها وراحتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتسهر الليالي لتأمين رعايته، ويشيب قلبها قبل شعرها، وهي ترقب سلامته ونموه وكبره ونجاحه وسعادته. وتؤرق الشوكة التي تشوك الابن مضاجع والده، بصورة طبيعية دون حاجة لأي شكل من أشكال التصنع أو التعلم، أو المجاملة، وهذا المسار الفطري يمر به ويكابده من كان سوي الخلقة والخلق، فلا عجب إن ظهرت أماراته على سلوك الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، فنوح عليه السلام حين تعرض قومه لعقوبة الغرق، توجه لولده ناصحاً: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[2] غير أن ابنه واجه هذا العطف الصادق، وذاك النصح المخلص ببجاحة الإعراض عن الحق، مما استدعى الفصل الرباني في الأمر: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[3] ولما أحس الوالد المتلهف على نجاة ابنه أنه سيواجه الحقيقة المرة والمصير الصعب، توجه إلى ربه، محاولاً طلب النجاة لفلذة كبده؛ ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[4] لكن الرد الرباني جاء حاسماً ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5].

1- الأحقاف:15.

2- هود: 42.

3- هود: 43.

4- هود:45.

5- هود: 46.47.

وما أكثر المواقف التي يتكرر فيها إتيان العقوق من الأبناء لآبائهم وأمهاتهم، في صور لا تعد ولا تحصى، والتي يظهر من بعضها التعالي عليهم، أو معاندتهم، أو جلب المآسي والأحزان واللوعة لهم، جراء انحراف في السلوك، أو حمل الأفكار الضالة والعقائد الباطلة، ولم يقتصر الذكر القرآني على مثال نوح وابنه في هذا المجال، بل ذكر شواهد أخرى لذلك، فذكر قصة الولد المعاند لوالديه، في تشبثه بباطله المهلك، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾[1].

فالعقوق مؤداه الخسران والبوار وسوء المصير، وهو بالإضافة لذلك دين في رقاب من عقوا، سيكون سداده لهم على أيدي أبنائهم طال الزمان أم قصر.

أما الصالحون والأنبياء عليهم السلام، فقد فقهوا حقوق آبائهم وأمهاتهم عليهم، فحرصوا على التلطف معهم حتى في حالات الاختلاف معهم، فإبراهيم عليه السلام حرص على الرقة في مخاطبة والده وهو يجادله في الحق، ويعارضه فيه، فكرر حسن الملاطفة المتضمنة بقوله" يا أبت" واستغفر لأبيه في بادئ الأمر، وحرص على هدايته، لكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، جعلنا الله ووالدينا هداة مهديين، بسنة رسولنا الأسوة ﷺ متمسكين وعاملين، وصلى الله وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الغر الميامين، ومن تبع هداه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الأحقاف:17-18.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم يحث على الزواج

5جمادى الآخرة/1430هـ وفق 2009/5/29م

لما كان الإنسان خليفة الله في الأرض، وقد قدر الله تعالى عليه الموت، ولبقاء هذا الكائن واستمرار خلافته، شرع الله تعالى الزواج بين بني آدم الذي يعود أصلهم جميعاً إلى نفس واحدة خلق منها زوجها، فتكاثر هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1].

وقد جرت سنة الزواج بين بني البشر من لدن آدم عليه السلام، وأقرتها جميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من بعده، إلى أن ختمت الرسالات برسالة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وهي سنة باقية في بني البشر، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وقد أولى الإسلام هذه السنة عناية فائقة، لما لها من أثر في المحافظة على استمرار الجنس الإنساني، وقيامه بمهام الخلافة في الأرض، فالرسول ﷺ يقرر هذه السنة بقوله:"يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"[2].

وفي هذا التوجيه النبوي ما فيه من توجيه شباب المسلمين إلى سلوك طريق العفة والإحصان من خلال الزواج، الذي يحفظ الإنسان من الوقوع في آفات البصر أو الفرج، التي يؤدي شيوعها في المجتمع إلى زعزعة الأخلاق، واختلاط الأنساب، وانتشار الرذيلة، وتراجع الفضيلة، ونقص الإيمان، لقول الرسول ﷺ:"لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ

1- النساء:1.

2- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال.

يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[1].

وقد نظم الإسلام هذه السنة تنظيماً فائقاً، ووضع لها الأحكام التي تكفل سعادة الأزواج، وتحقق غاية السكون بينهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وقد وجه الإسلام الراغب في الزواج إلى اختيار الزوجة الصالحة، فقال ﷺ:"مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ"[3].

وأي كنز أثمن وأكرم من زوجة صالحة، تطيع زوجها بالمعروف، وتبر أبناءه وتحفظ بيته وسره، وتقوم على رعاية بيتها وأبنائها وتنشئتهم على الإيمان والخُلق، وهي ترضعهم حليب الحياة والفضيلة منذ نعومة أظفارهم، فأكرم بزوجة صالحة هذا شأنها، وهذه رسالتها في خضم الحياة.

ولقد أصاب من قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

لذا جاءت توجيهات الإسلام واضحة في اختيار الزوجين على أسس من الدين والتقوى منذ اللحظات الأولى لإبداء الرغبة في الزواج، وهو ما يعرف بمرحلة الخطوبة.

فقد رغب الإسلام بصفات ومواصفات لا بدّ من مراعاتها في اختيار الخاطبين لعل من أهمها صفة التدين والخلق، فقال ﷺ بحق الخاطب:" إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ، قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"[4].

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر.

2- الروم:21.

3- سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب أفضل النساء.

4- سنن الترمذي، كتاب النكاح عن رسول الله، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه.

وقال بحق المخطوبة:" تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"[1].

فقد جعل رسول الله ﷺ الدين عنصراً أساسياً ومهماً في كلا الزوجين، عند الخطوبة واختيار شريك الحياة، وما بقي من صفات تراعى أو تطلب عند اختيار الأزواج كالمال والحسب والنسب، تأتي في مرتبة متأخرة عن الدين، وما هذا إلا لأهمية عنصر الدين عند الاختيار للحياة الزوجية.

وقد حفلت كتب السنة النبوية والسيرة النبوية الشريفة، وآثار السلف الصالح، بكثير من الاهتمام بعنصر التدين عند اختيار الزوج، ولعل فيما فعله سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ بتزويج ابنته من تلميذه أبي وداعة وإعراضه عن ابن الخليفة، ما يدل على هذا التوجه، فإن أول ما ينبغي أن يراعى في اختيار الزوج الدين، ومدى الالتزام بقيمه وأخلاقه من قبل الخاطب زوج المستقبل.

وإذا انتقلنا من مرحلة الخطوبة والاختيار، إلى مرحلة الزواج التي تجمع الزوجين تحت سقف واحد لتحقيق معنى السكن الذي أشارت إليه الآيات الكريمة، وجدنا الإسلام يرغب في تسهيل أمر الزواج من حيث المهر، ومتطلبات الزواج، ويدعو إلى تيسير الأمر على راغبي الزواج، وهذا يظهر جلياً في فعل الرسول ﷺ.

فقد زوج رسول الله ﷺ أحد أصحابه على خاتم من حديد، وزوج غيره على ما يحفظ من كتاب الله تعالى. فهذا الهدي النبوي الشريف يشرع للمسلمين، ويبين لهم سبيل التسهيل والتيسير على الأزواج، فقد زوج الرسول ﷺ فاطمة الزهراء لعلي ـ رضي الله عنهما ـ وجهزها بجهاز متواضع، وحينما طالبت بخادم وجهها إلى ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتكبير، إنه الرسول الأسوة ﷺ يعلم أمته، ويوجهها بقوله وفعله وتقريره من خلال السنة النبوية الشريفة، المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بعد كتاب الله تعالى.

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

فهلا أخذ المسلمون من أبناء أمتنا ومن أبناء هذه الديار المباركة، بهذا الهدي النبوي الشريف، فأحسنوا اختيار زوجات لأبنائهم من ذوات الدين والخلق، وراعوْا، في اختيار أصهارهم أن يكونوا من ذوي الدين والمروءة والخلق بعيداً عن مظاهر الدنيا ومفاتنها الخادعة، التي غرت وغدرت بمن اختار الزواج وفق مقاييسها الخداعة، فندم على اختياره في ساعة لا ينفع فيها الندم، ولا يتدارك فيها الخطأ.

إن مقاصد الشريعة الإسلامية في سنة الزواج واضحة في بناء الأسرة المؤمنة، المستقرة، الوادعة، التي تبدأ باختيار الزوجين وفق معايير الدين وأحكامه، لتؤول إلى بيت وادع يعج بالحياة والحيوية بذرية صالحة، تخدم أمتها، وتحمل على كاهلها دعوة الإسلام، تبلغها للعالمين.

وهمسة أخيرة إلى العاملين في مجال الأسرة وتنظيمها، والمطالبين بحقوق المرأة والطفل: أن عودوا إلى أحكام هذا الدين الحنيف، وطبقوها في هذا المجال، فستجدون فيها ما يغنيكم ويكفيكم مؤونة البحث في المؤتمرات الدولية.

كما تجدون ما يحافظ على الأسرة، هذه اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الفاضل، التي إن حافظنا عليها وحصّناها بقيم الإسلام وأحكامه، حققنا ما نصبو إليه من العفة والطهارة والقوة في بناء الفرد والمجتمع، في ظل إسلامنا وشريعتنا السمحة، وفي رحاب هدي نبينا الأسوة، صلى الله عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

" تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"

يحرص الإسلام الذي بلغه نبينا محمد ﷺ، للناس كافة، على بناء العلاقة الأسرية، وبخاصة بين الزوجين على أساس المودة والرحمة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (1)

وينظر الإسلام إلى الزواج على أنه رباط مقدس، لا يجوز أن يهبط لمستوى التسلية أو اللهو في طريقة التمسك به أو التفريط به، وبالنسبة للتعارف بين الجنسين قبل الزواج، فمع تقدير أهميته وضرورته، إلا أن حكمه يختلف حسب الهدف منه، ووسيلته، والضوابط والحدود التي يجري في إطارها، ومن أبرز سلبيات التعارف الحر قبل الزواج ومحاذيره، أنه يزعزع الثقة بالفتاة التي تبيح لنفسها التحرر من الضوابط والقيم والتساهل في مسألة التعارف، وهو أسلوب محفوف بالمجازفة والمخاطر، فهو باب للاحتيال والابتزاز والإسقاط، وقد يركن إليه بعضهم لأنه باب مسلٍ لديهم، فيعزفون عن الزواج مكتفين بمثل العلاقات التي يقيمونها مع الأطراف الأخرى من الجنس الآخر، ويستحسنونها ويستسهلونها، ومن يضمن حقوق المتعارفين في حالات عدم جدية أحدهما، حيث يتعذر في الغالب ضمان تلك الحقوق.

والإسلام يحث على طرق البيوت من أبوابها، بالوسائل والأساليب المشروعة، فيمكن أن تسبق الخطوبة أو طلب اليد خطوات مضبوطة سواء مباشرة أو بوساطة مأمونة، ويمكن التعارف من خلال الجلوس في حضرة الأهل وعلى مرأى منهم، بهدف التعرف على أفكار وتطلعات وأمزجة ورغبات وسلبيات وإيجابيات وخصائص الطرف الآخر، مع عرض ما لدى الشخص نفسه بصراحة وصدق ووضوح دون تصنع أو تزييف، فمن المهم أن يظهر كل طرف للآخر الحقيقة على حالها.

1- الروم:21.

وتهدف ضوابط التعارف قبل الزواج إلى حماية قيم المجتمع والعلاقات الأسرية والاجتماعية فيه، وكذلك إلى الحد من المشكلات، وحماية للمرأة على وجه الخصوص من الابتزاز والاستدراج للنيل منها أو التهاون في حقوقها.

وقد يتم التعارف بين الراغبين في الزواج قبل الخطبة، أو خلال الخطبة وقبل العقد، أو بعد العقد وقبل الدخول والزفاف، أو عبر الهاتف، أو عبر الانترنت والمحادثة، ومن أخطر وسائله تلك التي يستخدم فيها التصوير وتسجيل الصوت وتسجيل المراسلات للابتزاز والإسقاط، أو لاستخدام ذلك كوسائل ضاغطة لتحقيق أهواء ومآرب أشخاص أو أطراف مغرضين.

والتعرف من خلال تلك الوسائل معرض للإيقاع في الغرر والخداع والإيهام والتوريط، وقد لا ينتبه لذلك إلا بعد فوات الأوان، ولات حين مندم، ويبقى السؤال عن ضمان جدية الطرف الآخر قائماً.

والصورة المألوفة للتعارف الأولي في مجتمعاتنا المحافظة تكون في الغالب من خلال وساطة أو عن بعد دون احتكاك مباشر مع الطرف الآخر، وبعد الحصول على التفاصيل الأولية التي يجد فيها الباحث عن شريكه أنها تتلاءم مع رغبته، يكون التقدم للخطبة، وهي وعد بالزواج، وتتم وفق الضوابط والقيم المشروعة، ثم يكون الزواج.

وعرض الزواج يمكن أن يكون من الرجل أو المرأة أو الولي، وإن غلبت في مجتمعاتنا ظاهرة قيام الرجل بطلب الخطبة وعرض الزواج، إلا أن المرأة نفسها يمكن أن تقوم بذلك، ففي الصحيحين وغيرهما "أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا، جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، فَزَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا، قَالَ: انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي، قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ، فَلَهَا نِصْفُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ إِنْ لَبِسْتَهُ، لَمْ

يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ، ثُمَّ قَامَ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ، فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا، عَدَّهَا، قَالَ: أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اذْهَبْ، فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ"(1)

وقد يقوم بالعرض ولي المرأة، فالرجل الصالح الذي عرض على موسى عليه السلام الزواج من إحدى ابنتيه، يشهد لذلك، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (2)

وعمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على بعض الصحابة، ثم على الرسول ﷺ، فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ، قَالَ عُمَرُ: لَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا، لَقَبِلْتُهَا"(3).

ويشار هنا إلى أن الإسلام يحدد للعلاقة بين الجنسين حدوداً وضوابط، منها:

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب.

2- القصص: 23 – 28.

3- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب تفسير ترك الخطبة.

* منع الخلوة بين الجنسين أي في الإطار الذي يجيزه الشرع، فعن ابن عباس: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، يَقُولُ: لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: انْطَلِقْ، فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ"(1)

ومن تلك الضوابط، أمر كلاً من الجنسين بغض البصر عن الطرف الآخر، فالله تعالى يقول: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2)

ولكن في حالة الإقدام على مشروع زواج، فهنا يكون الاستثناء من الأمر بغض البصر، فعن أبي هريرة قال:" جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَإِنَّ فِي عُيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا، قَالَ: قَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا، قَالَ: عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ، كَأَنَّمَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ، مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ عَسَى أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ، قَالَ: فَبَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي عَبْسٍ، بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِمْ"(3)

وفي شرح النووي على صحيح مسلم، حول هذا الحديث: قول النووي باستحباب النظر إلى وجه من يريد تزوجها، وهو مذهبنا ومذهب مالك وأبي حنيفة وسائر الكوفيين وأحمد وجماهير

1- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره.

2- النور:30-31.

3- صحيح مسلم، كتاب النكاح ، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها.

العلماء، ثم إنه إنما يباح له النظر إلى وجهها وكفيها فقط، لأنهما ليسا بعورة، ولأنه يستدل بالوجه على الجمال أو ضده، وبالكفين على خصوبة البدن أو عدمها. ونقل عن مالك رواية ضعيفة أنه لا ينظر إليها إلا بإذنها، وهذا ضعيف لأن النبي ﷺ، قد أذن في ذلك مطلقاً، ولم يشترط استئذانها، ولأنها تستحيي غالباً من الإذن، ولأن في ذلك تغريراً، فربما رآها، فلم تعجبه، فيتركها، فتنكسر وتتأذى، ولهذا قال بعض العلماء بأنه يستحب أن يكون نظره إليها قبل الخطبة حتى إن كرهها تركها من غير إيذاء، بخلاف ما إذا تركها بعد الخطبة. والله أعلم.

وذكر بعض العلماء أنه إذا لم يمكنه النظر، استحب له أن يبعث امرأة يثق بها، تنظر إليها وتخبره، ويكون ذلك قبل الخطبة لما ذكر.

وفي بعض الروايات ورد تعليل الحث على نظر الخاطبين كل منهما إلى الآخر، فعن المغيرة ابن شعبة قال:" أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ امْرَأَةً أَخْطُبُهَا، فَقَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا، (1) قَالَ: فَأَتَيْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَخَطَبْتُهَا إِلَى أَبَوَيْهَا، وَأَخْبَرْتُهُمَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَأَنَّهُمَا كَرِهَا ذَلِكَ، قَالَ: فَسَمِعَتْ ذَلِكَ الْمَرْأَةُ، وَهِيَ فِي خِدْرِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَكَ أَنْ تَنْظُرَ، فَانْظُرْ، وَإِلَّا فَإِنِّي أَنْشُدُكَ، كَأَنَّهَا أَعْظَمَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا، فَتَزَوَّجْتُهَا، فَذَكَرَ مِنْ مُوَافَقَتِهَا "(2)

* ومن الضوابط التي شرعها الإسلام في هذا المجال التأكيد على حق كل من الزوجين – ذكوراً وإناثاً- في أن يختار صاحبه برغبته وإرادته، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:"دَخَلَتْ فَتَاةٌ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي(3) خَسِيسَتَهُ،(4) وَأَنَا كَارِهَةٌ، قَالَتْ: اجْلِسِي حَتَّى يَأْتِيَ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَتْهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهَا، فَدَعَاهُ فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ أَلِلنِّسَاءِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"(5)

1- قوله (أن يؤدم بينكما) :على بناء المفعول من أدام بلا مد، أو بمد، أي يوفق ويؤلف، والخطاب لتغليب الحاضر على الغائب، النهاية في غريب الأثر 32/1.

2- مسند أحمد، مسند الكوفيين، باب حديث المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه.

3- قوله (ليرفع بي): أي ليزيل عنه بإنكاحي إياه، حاشية السندي 87/6.

4- خسيسته: دناءته، أي أنه خسيس فأراد أن يجعله بي عزيزاً، والخسيس الدنيء، والخسة والخساسة الحالة التي يكون عليها الخسيس، يقال رفع خسيسه إذا فعل به فعلا يكون فيه رفعة (فجعل الأمر إليها)، النهاية في غريب الأثر 31/2.

5- سنن النسائي، كتاب النكاح، باب البكر يزوجها أبوها وهي كارهة.

فالإسلام الحنيف يهدف إلى إنجاح الحياة الزوجية، ويعمل على توفير السبل المشروعة لتحقيق هذا الهدف النبيل، دون اللجوء إلى استباحة الانحلال أو التفلت من الضوابط والقيم التي تنسجم مع مبادئه وقيمه وأحكامه، وذلك حماية للحياة الزوجية نفسها من ناحية، وحفظاً للزوجين وبخاصة المرأة من ناحية أخرى، ويرفض الإسلام خضوع أحكام الشرع وقيمه للقبول بأهواء وأمزجة ومواقف تتحكم بالواقع، وهو يرفض فكرة الصداقة بين الشباب والفتيات، أو الزواج على منهج التنقل من حضن صديق لآخر.

وفي صدد التأكيد على سلوك السبل التي تحفظ حدود العلاقات بين الجنسين الراغبين بالارتباط ببعضهما عن طريق الزواج، نهى الله عن المواعدة السرية بالزواج خلال عدة المتوفى عنها زوجها، وأباح التعريض بذلك، فقال تعالى: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (1)

من هنا ندعو لتشخيص واقعنا وواقع غيرنا، لنفحص هل ساعد الانفتاح والتعارف المتحرر من الضوابط والقيم في نجاح الحياة الأسرية، وهل حقق الاستقرار للزوجين والمجتمع والأسرة، أم أدى إلى ضعف الأسر، وزاد في مصائب الناس ومشكلاتهم، ونحن على يقين بأن الصلاح والخير في اتباع المنهج الذي جاء به أسوتنا ﷺ، عن ربه، هدانا الله لاتباعه والعمل وفقه، وصلى الله على الرسول المصطفى وسلم.

1- البقرة:235

المتتبع لسنة المصطفى ﷺ، وهديه يجد حثاً على الزواج لما فيه من المنافع بإنجاب الذرية الصالحة، وغض البصر، وحفظ الفرج والتحصن من الوقوع في الآثام، والسكن بين الزوجين، فالله يقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (2)، والرسول ﷺ يقول: " أُصَلِّي، وَأَنَامُ، وَأَصُومُ، وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي "(3).

ويقول عليه الصلاة والسلام:" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ، فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ "(4).

وقد حث إسلامنا الحنيف الأزواج على المعاشرة بالمعروف والمعاملة الحسنة، حتى تسود السكينة والطمأنينة والمحبة البيت الذي يجمع بين الزوجين لتكوين أسرة صالحة تعمل على تطبيق أحكام الإسلام في بيتها ومجتمعها، وتربي أبناءها على الفضيلة والخلق الحسن، بعيداً عن الرذيلة والأخلاق السيئة.

فالمجتمعات الصالحة هي التي تقوم على بناء الأسر الصالحة المحصنة بالأخلاق الحسنة، فإذا كان الحال كذلك، فقد سادت المجتمع روح المحبة والتعاون والتكافل، وتقدم المجتمع في جميع مناحي حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وغدا المجتمع بناءً متماسكاً يشد بعضه بعضاً، كما ورد في الحديث :" الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ "(5).

1- الروم:21.

2- النور: 32.

3- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال.

4- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم.

5- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا.

وفيما يخص الأزواج؛ فقد بيّن الإسلام بشكل واضح حقوق كل من الزوج والزوجة، ومن ذلك أنه بمجرد عقد الزواج يجب للزوجة النفقة على زوجها، وذلك بتجهيز بيت الزوجية، الذي تنطبق عليه الشروط الشرعية، ودفع مقدم المهر، وإذا ما تم الزفاف وجمع الزوجين سقف واحد، فقد أمرهما الله بالمعاشرة الزوجية بالإحسان والمعروف، والابتعاد عن كل ما يسيء للعلاقة الزوجية، أو ينغص الحياة ويكدر الأجواء. فالله يقول: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[1]، والرسول ﷺ يقول:" لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ "[2].

وإذا ما ظهر أي خلاف بين الزوجين، ولم يستطع الزوجان إيجاد حل له، فإن على الأهل والأقارب والأصدقاء أن يعملوا على حله وإنهائه، وإعادة الحياة الزوجية إلى مجاريها ومقتضياتها من الألفة والتعاون والتفاهم.

وقد دعا الإسلام إلى تحكيم أهل الخبرة في خلافات الأزواج، فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا ﴾[3].

وإذا استحكمت الخلافات بين الزوجين، فقد جعل الله الطلاق مخرجاً لإنهاء هذا الخلاف، فشرع الطلاق على مراحل منها؛ إيقاع الطلاق الأول الرجعي الذي لا يزيل الزوجية في الحال، بل يحق للزوج بعد هذا الطلاق وفي أثناء العدة أن يراجع زوجته، ويرجعها إلى عصمته، وليستأنفا حياتهما الزوجية من جديد، ولا يخسر في هذه الحال إلا طلقة من الطلقات الثلاث التي يملكها الرجل على زوجته، لقول الله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ

1- النساء:19.

2- صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

3- النساء:35.

بِإِحْسَانٍ ﴾[1]، فبعد الطلاق الأول والثاني الرجعيين، يحق للرجل أن يراجع زوجته، فإذا أصبح الطلاق بائناً بينونة صغرى، يراجعها بمهر وعقد جديدين.

فإن لم يتم الإمساك بالمعروف، فإن المصير إلى التسريح بالإحسان، وهو الطلاق الثالث الذي تبين بموجبه الزوجة بينونة كبرى، لا تحل لمطلقها إلا بعد زواجها من آخر وافتراقها عنه بسبب غير التحليل الذي حرمه الإسلام ومنعه.

إن الإسلام وهو يشرع كل هذه المراحل في الحياة الزوجية، إنما يهدف إلى المحافظة على بناء البيوت والبعد عن هدمها بالطلاق الذي يؤدي في غالب الأحيان إلى تشريد الأبناء وتشتت الأسر، عدا ما يلاقيه الأزواج من عنت وظلم اجتماعي، وقد حذر الإسلام الأزواج من الإضرار ببعضهما، كالهجر من الزوج وعدم الطاعة من المرأة، أو تقصير كل منهما بحق الآخر.

وكما نهى الإسلام الزوج عن اللجوء إلى الطلاق بسبب أو بغير سبب، والإسراف في إيقاع الطلاق، فقد حذر الزوجة من طلب الطلاق، بلا مسوغ شرعي، لما روي عن ثوبان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:" أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ "[2].

فهذا نهي صريح للمرأة أن تطلب الطلاق من غير سبب موجب لذلك، فقد أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام عن عقوبة في الآخرة لهذه المرأة؛ وهي حرمانها من دخول الجنة لارتكابها هذه المعصية، بطلب الطلاق من غير مسوغ شرعي، والمرأة التي تطلب الطلاق من غير سبب شرعي، تتنكر للحياة الزوجية وما فيها من معروف من قبل الزوج الذي يتحمل النفقات الزوجية، ويقوم على رعاية زوجته وأبنائهما، ويحرص على استمرار الحياة الزوجية في هدوء وأمان.

1- البقرة:229.

2- سنن الترمذي، كتاب الطلاق واللعان عن رسول الله، باب ما جاء في المختلعات.

لكل هذه المعاني العظيمة والكبيرة جاء تحذير النبي ﷺ، للزوجات من طلب الطلاق بغير سبب، هذا ويجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بحكم قضائي في حالات منها:

- إذا كان الزوج عاجزاً عن النفقة.
- إذا وجد في الزوج مرض مستحكم، ولا يزول كالجنون والجذام والعنة.
- إذا غاب الزوج سنة فأكثر وتضررت الزوجة جراء هذا الغياب.
- إذا هجر الزوج زوجته أربعة أشهر فأكثر.
- إذا تمت الملاعنة بين الزوجين، وهي اتهام الزوج لزوجته بفاحشة الزنا.
- إذا وقع شقاق بين الزوجين واستمر دون أن يجدا له حلاً، فللمرأة أن تطلب الطلاق.
- إذا اشترطت المرأة على زوجها أن لا يتزوج عليها، أو أن يرحل بها بعيداً عن أهلها ووطنها.

في مثل هذه الأحوال يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق، ولا تقع في الإثم أو العقوبة التي أخبر عنها النبي ﷺ، فإن ديننا الإسلامي جاء رحمة للعباد، وأوجد الحلول المناسبة لكل ما يعترض الحياة الزوجية، بل أوجد حلاً لكل مشكلة أو معضلة تعترض الحياة الإنسانية بشكل عام.

وفي هذا المقام لا بد لنا أن نوجه النصح للأزواج، وبخاصة الأزواج الشابة، الذين يتهاونون في أمر الطلاق، فترى الزوج يوقع الطلاق لأتفه الأسباب، كما تجد الزوجة تطلب الطلاق كذلك لأمر لا يستدعي الطلاق، ولا يبرر طلبه، فتنتهي الحياة الزوجية إلى نهاية مؤلمة ومؤسفة ومحزنة تقود إلى الندم، ولات ساعة مندم.

ألا فليحرص الأزواج على طاعة الله والمعاملة بالحسنى فيما بينهم، اقتداء بهدي الرسول ﷺ،"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"[1].

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله الطيبين، وأهل بيته الطاهرين، وعلى صحابته أجمعين، ومن اقتدى واهتدى بسنتهم إلى يوم الدين.

1- سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب فضل أزواج النبي ﷺ.

تقوم العلاقات بين أبناء المجتمعات الإنسانية على وشائج وروابط متعددة ومختلفة، منها وشيجة الدم والنسب، ووشيجة الأرض والوطن، ورابطة القوم والعشيرة والقبيلة، أو وشيجة اللون واللغة والجنس، أو الحرفة والطبقة، أما في ديننا الحنيف، فإن الوشيجة التي تربط أبناء المجتمع هي وشيجة العقيدة ورابطة الدين.

هذه الرابطة التي لا تنفصم عراها، ولا يعتريها الخلل، لأنها رابطة تقوم على الدين، وانتساب الإنسان لرب العالمين، واتباعه لهدي سيد المرسلين ﷺ.

وأكبر دليل على قوة رابطة الدين ووشيجة العقيدة بين أفراد المجتمع، ما عاشه أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم العملية بعد أن هداهم الله إلى هذا الدين العظيم، الذي استنقذهم من وهدة الجاهلية والانتصار للقبيلة ظالمة أو مظلومة، فقد تخلوا عن كل روابط الدم والقبيلة والعشيرة والعصبية والدعوة إليها، إلى رباط متين، وعلاقة لا يعتريها الخلل، إنها علاقة الإيمان وأخوة العقيدة والدين، التي جمعت أبا بكر العربي وبلال الحبشي وصهيب الرومي، جمعتهم إخوة متحابين، يفدون بعضهم بعضاً بالمهج والأموال والأرواح.

فأبو بكر يفتدي بلالاً بالذهب ليحرره من العبودية، ويطلق سراحه ليكون فيما بعد مؤذن رسول الله ﷺ الذي يجمع إخوانه المسلمين لأداء أعظم ركن من أركان هذا الدين في مسجد رسول الله ﷺ، وأينما حضر وقت الصلاة في صحبة رسول الله ﷺ. ويخاطب الرسول عليه السلام أصحابه معلماً إياهم، ومحذراً من العصبية وآفاتها، بقوله:" دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ "، وذلك إثر صيحة نادى بها أنصاري: يا للأنصار ، ورد أحد المهاجرين: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، وقال:"مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"(1).

1- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

نعم إنها منتنة حقاً، لأنها دعوى جاهلية، ولا يدعو إليها إلا من خالطته حمية الجاهلية، فكيف بمن يسمع قول الرسول ﷺ:"لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ"(1).

لقد انتهى أمر هذا النتن، وماتت هذه العصبيات، وماتت نعرة الجنس، واختفت لوثة القوم، ومنذ ذلك الوقت لم يعد وطن المسلم هو الأرض، التي ولد فيها، وإنما وطنه هو دار الإسلام، حيثما وصلت حدودها، تلك الدار التي تحكمها عقيدة الإيمان، وتسودها شريعة الإسلام. ويخوض جندي الإسلام عباب البحر قائلاً: لو علمت أن خلفك أرضاً لخضتك مجاهداً في سبيل الله.

يا لها من عزة! وما أكرمها من نخوة ! إنها عزة الإسلام، ونخوة المؤمن الذي يرى الجهاد في سبيل الله لنصرة هذا الدين، والذي تجرد من كل الروابط، إلا رابطة العقيدة، التي جعلت المؤمنين كالجسد الواحد، يصدق فيهم قول الرسول ﷺ:"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(2).

وصنعت من المسلمين أمة من دون الناس إخوة في الدين والعقيدة:"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(3).

وقد ركز الرسول ﷺ هذه الرابطة في المجتمع الإسلامي الأول، حينما آخى بين المهاجرين والأنصار، فاقتسم المهاجرون والأنصار لقمة العيش عن طيب نفس من الأنصار، لا بل آثر الأنصار إخوانهم المهاجرين، وهذا ما سطره القرآن الكريم في ثنايا سوره الكريمة، وآياته الحكيمة.

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (4).

1- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في العصبية.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

3- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

4- الحشر:9.

وفي معركة اليرموك يمر ساقي الماء على جرحى المسلمين، فيؤثر كل منهم صاحبه الذي يئن من ألم جراحه، حتى يمر على سبعة من الجرحى، وكلهم يقول: إذهب إلى صاحبي، حتى عاد إلى الأول فوجده قد استشهد، وهكذا هي أحوال الصحابة، وأحوال من ترك عصبية الجاهلية، وارتبط برابطة الإيمان ووشيجة الإسلام.

فما أحوجنا إخوة الإيمان في هذا الزمان الذي أطلت فيه العصبية برأسها، ووجد فينا وبيننا من يروج لها، ويدعو لها، ما أحوجنا إلى العودة إلى هدي رسولنا الأسوة ﷺ، وإلى اقتفاء سيرة السلف الصالح من الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، الذين نبذوا العصبية، وأحلوا مكانها رابطة العقيدة، فسادوا بها، وبنوا للمسلمين حضارة ومجداً.

إن العصبيات والقوميات والإقليميات والجنسيات كادت، أو تكاد، تعصف ببنيان الأمة، وتقضي على وحدتها، بتفريقها أيدي سبأ.

وإذا لم يتدارك أولو الألباب من أبناء الأمة هذا الوضع، وهذه الحال، فإن خطراً حقيقياً يحدق بالأمة، وينذر بتقدم العصبيات ودعاتها، وحينئذ تكتوي الأمة بنتن هذه العصبيات التي حذر منها رسول الله ﷺ، وقال:"دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"(1).

ووضع لنا أساساً متيناً للخروج من مثل هذه الحالة بقوله:"وَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ"(2).

ونحن نشهد أنك ياسيدي، يا رسول الله، قد بلغت وأديت ونصحت، وتركتنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فليس بعد بيانك حجة لمعرض، أو عذر لمقصر.
نسأل الله تعالى، وهو القادر على ذلك، أن يلهم المسلمين رشدهم، وأن يردهم إلى سبيله رداً جميلاً، ليعيدوا مجد الأمة، وعزة الدين، تحت راية التوحيد، ورابطة العقيدة التي تجمع أمة الإسلام، وتوحد المسلمين، بعيداً عن العصبية ونتنها، اقتداء برسولنا الأسوة، صلى الله عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

2- سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي.

لقد حاز رسول الله ﷺ محاسن الأخلاق كلها، فهو الجامع لها في نفسه، والمعبر عنها في فعله وقوله وهديه، صدق فيه قول ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (1).

ومن أخلاقه الكريمة، وشمائله النبيلة؛ سمة العفو، وهو خلق رفيع لا يتحلى به إلا أصحاب النفوس الكبيرة، والهمم العالية، من الرسل الكرام، وأتباعهم الذين تربوا في مدرسة الرسالة، فانصهروا في تعاليمها، وساروا على سنة أصحابها.

لقد جعل رسول الله ﷺ من سيرته بياناً لآيات العفو من خلال مواقفه الكريمة في تجاوزه وعفوه عمن أساء إليه وآذاه، فعفا، وصفح، وتجاوز، وكظم غيظه، وصبر، وغفر، تطبيقاً لآيات الله الداعية إلى هذه الفضائل.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (2).

وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (3).

وقوله جل من قائل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (4).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (5).

وتروي لنا أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، عن عفو النبي عليه السلام قالت: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (6).

1- القلم:4.

2- الأعراف:199.

3- الحجر: 85.

4- آل عمران: 134.

5- الشورى: 43.

6- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح.

فهذه أخلاقه عليه السلام، وهذه سيرته وهديه ترويه أقرب الناس إليه، المطلعة على جميع أحواله، والأمينة على نقل كرائم أخلاقه، يعفو، ويسامح، ويصفح، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله، فينتقم لله، وهذه غيرة المؤمن على صون حرمات الله من أن تنتهك .

لقد أُدميت قدما رسول الله ﷺ حينما ذهب إلى أهل الطائف، يدعوهم إلى الإسلام، وردوه رداً لا يليق بإنسان فضلاً عن نبي ورسول، ولقد أدمى المشركون وجهه، وكسروا رباعيته في معركة أحد، وما زاد عليه السلام على قوله:"اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[1].

وإذا كانت هذه سيرته عليه السلام في العفو في المواقف العامة، فإنه كان يعفو كذلك في المواقف الخاصة عن الأفراد الذين حاولوا أذاه، أو النيل منه. من ذلك ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما،" أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي، قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[2].

أي أخلاق هذه؟! إنها أخلاق النبوة، وأي عفو هذا؟! إنه عفو الرسول ﷺ، إنه العفو الكريم عند القدرة والمقدرة، إنه شرف الأخلاق، ومروءة الكريم.

وقد عفا عليه السلام عن المرأة اليهودية التي وضعت له السم في الطعام، فقد روي"أَنَّ امْرَأَةً مِنْ الْيَهُودِ أَهْدَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةً مَسْمُومَةً، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟ قَالَتْ أَحْبَبْتُ أَوْ أَرَدْتُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُكَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَبِيًّا أُرِيحُ النَّاسَ

1- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

2- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

منك"[1] وفي رواية:"أَنَّ امْرَأَةً مِنْ الْيَهُودِ أَهْدَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ شَاةً مَسْمُومَةً، قَالَ: فَمَا عَرَضَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ"[2].

إنه العفو عند المقدرة، وإنه العفو الذي يغلب الانتقام، وإنه العفو الحاضر في مواطن المروءة دائماً، إنه الخلق النبيل، والمحتد الكريم، إنه الرسول الخاتم، والإنسان الكامل، الذي رباه مولاه على عينه، وآواه إلى كنفه، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾[3].

وقد عفا رسول الله ﷺ عن أهل الكتاب من الذين غدروا ونكثوا، فقد عفا عن بني النضير من اليهود بعد أن خططوا لقتله، واكتفى برحيلهم خارج حدود الدولة.

ولقد عفا رسول الله ﷺ عن مشركي مكة الذين آذوه، وقاطعوه وقومه في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، وعلقوا عهد المقاطعة في الكعبة المشرفة. واضطهدوا أصحابه وأتباعه، وقتلوا كثيراً منهم، لا لشيء إلا لأنهم أسلموا واتبعوا النور الذي أنزل على النبي ﷺ.

لقد كان فتح مكة فتحاً عظيماً مبيناً، عاد فيه النبي ﷺ وأصحابه إلى وطنهم، وكانت قريش تنتظر ما سيحل بها، وكان الموقف الكبير والعفو الذي سطره التاريخ أنموذجاً قلما يتكرر، إلا من أتباع الرسول ﷺ الذين يتبعون هديه، ويتمثلون أخلاقه الكريمة، لقد كان موقفه من أهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عدواة وبغضاء، موقف الصفح والعفو، فقال لهم:"اذهبوا فأنتم الطلقاء"[4].

إنها أخلاق النبوة، وإنه عفو النبي في زهوة النصر وقمته، وليست أخلاق قياصرة وأكاسرة الدنيا، الذين تأخذهم زهوة النصر، فيبطشون، ويقتلون، وتسيل الدماء أنهاراً.

إنه صنيع رسول حريص على هداية قومه، والناس جميعاً يعفو ويصفح، فيدخل الناس في دين الله أفواجاً.

1- مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن العباس.

2- سنن أبي داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد منه.

3- الضحى:6.

4- أخرجه الألباني في فقه السيرة، سنن البيهقي 118/9، جامع الأصول 319/2.

وهذه هي غاية ما يصبو إليه، ويعفو من أجله، إنها هداية الناس، وتبليغ رسالة الله، وإرساء دعائم الخير والهدى والأخلاق الكريمة. فهلا امتثل أبناء قومي في هذه الديار، وفي ديار المسلمين كافة، بهذه الأخلاق الكريمة في العفو والصفح، فتجاوزوا عن إساءات بعضهم بعضاً، وعملوا على إحلال الألفة والمحبة والتعاون والوحدة فيما بينهم، ونبذوا أسباب الفرقة والكراهية والخلاف، وتجاوزوا عن المسيء، وعفا بعضهم عن بعض، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] إننا إن فعلنا هذا، وتأسينا بخلق العفو عن بعضنا بعضاً، كنا ممن يسير على خطى الرسول الأسوة ﷺ، ويحيي سنته، ويبعث نهجه من جديد، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[3].

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم يوم الدين.

"مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"

1- الشورى: 40.

2- النور:22.

3- المطففين:26.

المراقب لأحوال المسلمين اليوم يعتريه الألم، ويصاب بالإحباط لما يراه من تراجع في منظومة قيم الرحمة والمودة والمحبة والتعاون والتكافل بين أبناء الأمة الواحدة، لا بل بين أبناء كثير من شعوبها الذين تجمعهم عقيدة واحدة، ويعيشون فوق أرض واحدة، تتهددها أخطار الاحتلال أو غزو الجيران أو اقتتال الإخوان، وفي أحسن الأحوال اختلاف البرامج والأهداف والأجندات، التي تعصف بمصلحة الشعب والأرض والمستقبل، وكل يدعي أن الحق بجانبه، وأنه الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، ويعمل على تثبيتها في واقع الشعب، حينما يكون البحث في المصلحة العليا لشعب ما من شعوب الأمة، أو يدعو لتثبيتها في حاضر الأمة ومستقبلها، حينما يدور الحديث عن مصلحة الأمة بمجموعها، وواقع الحال مغاير لهذا وذاك، فكل يدعي وصلاً بليلى، وليلى لا تقر لهم بذاكا.

وحتى نجلي الأمور ونزيد الصورة وضوحاً، نسوق هدي المصطفى ﷺ في وصف حال الأمة، وما يجب أن تكون عليه من التراحم والتواصل والتوادد، فعَنْ النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ قَالَ:" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (1).

رحماك يا رب فهل حال أمتنا ينطبق عليه هذا الوحي ـ الذي لا ينطق عن الهوى ـ وقد بين العقيدة وأخوة الإيمان الحال السوي للأمة في ظل رابطة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (2)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (3).

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

2- الحجرات:10.

3- التوبة:71.

وقد وصف الله رسوله ﷺ والمؤمنين بأنهم رحماء بينهم، يبتغون رضوان الله وطاعته، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ (1)

فهل تساءلت الأمة عن هذا الحال ؟ وعملت على إعادته واقعاً معاشاً تحياه!! فقد جاء هذا الدين العظيم لينقذ الأمة من وهدة الضلال والضعف والفرقة إلى هداية الإيمان والقوة والوحدة في ظلال شريعة محكمة، وعقيدة سمحة ميسرة لمن أراد الله له خيريْ الدنيا والآخرة، وكتبه من المهتدين. وقد عاش أسلافنا من الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان هذا الحال واقعاً ملموساً، طبقوا فيه هدايات الله وسنن المصطفى ﷺ، فكان إيمانهم كبيراً، ويقينهم صادقاً، ولا وجهة لهم إلا رضوان الله تعالى، فآواهم الله وأيدهم بنصره، فحازوا قصب السبق بإيمانهم، وامتن الله على هذه الأمة بفضله، فجعلها وفق هذا المعيار الإيماني أمة وسطاً، وخير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (2)، وقال جل شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾ (3)

إن هذه الأمة الوسط التي حازت الخيرية بين الأمم، مدعوة في جميع الأحوال والأوقات أن لا تنزل عن هذه المرتبة، ولا تنقص عن هذا التدريج، فهذا هو وضعها الذي يجب أن تحافظ عليه، وتبعد عن مسيرتها كل ما من شأنه أن يعطلها، أو يحرفها عن جادة الصواب.

وإذا كان النبي ﷺ قد بين لنا صورة تراحم المسلمين وتعاطفهم، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فقد حذرنا في الوقت نفسه من الفرقة والخلاف، وظلم بعضنا بعضاً، فقال ﷺ: "...الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ..." (4).

1- الفتح:29.

2- البقرة: 143.

3- آل عمران:110.

4- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

فهذا هو البناء المتين لجسم الأمة الذي يجب أن تحافظ عليه، ولا تسمح لعوامل الخلل أو الفساد أن تتسرب إليه، فالذين آمنوا وتراحموا وتعاونوا وتحابوا من أجيال الأمة، وآثروا على أنفسهم مع حاجتهم، هم الذين بنوا جسم الأمة المتراحم والقوي، الذي سادته قيم الإيمان والأخلاق والمحبة والإيثار، فاستحقوا أن يمدحوا بوصف الإيمان والفلاح، فقال تعالى في وصفهم ومدحهم: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1].

فما أحوجنا في هذه الأوقات العصيبة التي تعاني فيها أمتنا مرحلة التراجع والضعف، والفرقة والهوان وطمع الأعداء، أن تراجع شعوبنا حكاماً ومحكومين العوامل التي أدت بنا إلى هذا الحال، لتقويم المرحلة، والعمل على الخروج منها نحو مستقبل يؤسس لكرامة الأمة، وصون وحدتها وعزتها، وفق أسس الإيمان الذي يجعل منها أمة واحدة، ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [2]

كما يجعلها جديرة باسمها الإسلامي ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ [3]. ولعلنا نعيد على مسامع الأمة سنة الله في سعادة الأمم وشقائها، فلن تجد لسنة الله تحويلاً، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فالله يقول: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [4] فانظروا يا إخوة الإيمان إلى واقع حي عاشته الأمة، وتاريخ ناطق يوم اتبعت هدى الله، كيف اهتدت وسعدت، وسجل التاريخ حقبة طويلة من سعادة أمتكم في ظلال هدايات الله التي لا يضل ولا يشقى من اتبعها وسار على نهجها، وكيف تغير حالها، وأصبح عيشها، حينما أعرضت عن هذه

1- الحشر:9.

2- الأنبياء:92.

3- الحج:78.

4- طه: 123-126.

الهدايات وتنكبت جادة الصواب، وتحولت عن دستور سعادتها الأبدية إلى أحكام وضعها الإنسان القاصر عن إدراك مصلحة الإنسان الحقيقية، فكيف إذا تدخل هواه بذلك؟! فلا مخرج للأمة من واقعها المؤلم إلا بسلوك طريق الأوائل الذين أنار الله أبصارهم وبصائرهم بنور التقوى والإيمان، وقام كيانهم على بنيان الإسلام الذي أكمله الله وأتم به نعمته علينا ورضيه لنا ديناً.

ورضي الله عن الفاروق عمر إذ قال: " نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله".

وهو كذلك القائل: "من أحب أن يكون من هذه الأمة فليحقق شرط الله"، وهو يعني قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[1]. فإذا كان المعروف شاملاً لكل خير، والمنكر شاملاً لكل شر، فمن آمن بالله وعمل الخير ونهى عن المنكر، فقد حقق شرط الله، وكان من هذه الأمة الخيّرة، هذه الأمة المتراحمة والمتعاطفة، الذي يشد بعضها بعضاً، كالبنيان المرصوص.

نسأل الله تعالى أن يلهم أمتنا حكاماً ومحكومين، كلاًّ حسب موقعه ومسؤوليته، فعل الخير والعمل بما يرضي الله تعالى، حتى يكونوا جديرين بخير أمة أخرجت للناس، ويعيدوا للعالم الحائر المنكوب رحمة السماء ونور الهداية والإيمان، الذي أراده الله لخلقه جميعاً.

كما نسأل الله تعالى أن يمن على أبناء شعبنا الصابر المرابط بالخير والهدى، ويطفئ الفتن من بين صفوفهم، ويعيدهم جميعاً صفاً واحداً متراصاً، ليتفرغوا لمسؤوليات الثبات والصمود فوق هذه الأرض الطاهرة، التي اختارنا الله حراساً لمقدساته، وسدنة للمرابطة فيها، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- آل عمران:110.

لما كان اليتيم قاصراً عن ولاية نفسه وضعيفاً في رعاية شؤونه، فقد حباه ديننا الإسلامي الحنيف بمزيد من العطف والحنان، إذ يحرص الإسلام على رعاية المجتمع، وبخاصة تلك الفئات الضعيفة التي تحتاج إلى مزيد من العناية والرعاية؛ كالأيتام والأرامل والمساكين وذوي الاحتياجات الخاصة.

فالرسول ﷺ في معرض حضه على رعاية اليتيم وبيان الثواب العظيم لمن يكفله ويرعاه، يقول: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى"[1].

واليتيم في اصطلاح الفقهاء: اسم لمن مات أبوه ولم يبلغ الحلم. فلا يسمى البالغ يتيماً لأنه وصل إلى حد التكليف وأدرك مدارك البالغين، وأصبح قادراً على رعاية شؤونه، فقد جعل الإسلام حد دفع الأموال إلى أصحابها الأيتام وصولهم مرحلة البلوغ، فقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[2]

فالرسول ﷺ يبين بشكل ظاهر واضح منزلة كافل اليتيم، ويقرن هذه المنزلة بمنزلته ﷺ، ضارباً مثلاً واضحاً على سمو هذه المنزلة وعلوها، بإشارته إلى إصبعيه السبابة والوسطى، من حيث قربهما من بعضهما بعضاً وتلازمهما إذ لا تنقص السبابة عن الوسطى إلا قليلاً، كما أن السبابة والوسطى من الأصابع التي لها أهمية بالغة في الاستفادة من منافع اليد، فبدونهما تصبح اليد معطلة عن استيفاء منافعها.

فإذا كان كافل اليتيم بجوار النبي ﷺ في الجنة، فإن هذه المنزلة من أعظم المنازل، وغاية الإكرام والرفعة عند الله تعالى، إذ إن منزلة النبي عليه السلام هي أرفع منازل الآخرة في الجنة، فهو ﷺ صاحب المنزلة الرفيعة والمقام المحمود الذي لا يكون لأحد غيره، ومن كان قريباً من النبي ﷺ في الجنة، فهو في أعلى المنازل، بل في منزلة لا يصل إنسان إلى أفضل منها، أو أعلى منها.

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما.
2- النساء:6.

وكل ذلك يأتي جزاء رعاية اليتيم وكفالته والحنو عليه والإحسان إليه، وقد قرن الله تعالى الإحسان إلى اليتيم بالإحسان إلى الوالدين وذوي القربي، وجاءت هذه الوصايا مقرونة بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك به، فقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (1)

وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بإيوائه حال يتمه، إذ يسر له من يرعاه في يتمه من جد وعم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (2)

كما جعل الله تعالى من أسباب النجاة في الآخرة الإحسان إلى اليتيم وإطعامه، فقال تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (3)

وامتدح الله تعالى من يحسنون إلى اليتيم، وعدهم مع الأبرار، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (4)

لذلك لا غرابة أن ترى رسول الله ﷺ يصف البيت الذي يرعى اليتيم، ويحسن إليه بأنه من خير بيوت المسلمين، كما أن البيت الذي يساء فيه لليتيم هو شر البيوت، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ" (5)

1- النساء:36.

2- الضحى:6 ـ 11.

3- البلد: 11ـ 16.

4- الإنسان:5ـ 9.

5- سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم.

وكما بين النبي ﷺ مكانة رعاية اليتيم وثوابها، فقد حذر من ظلم اليتيم أو أكل ماله، واعتبر ذلك من الكبائر الموبقات؛ أي التي تعرض صاحبها إلى النار فيهلك، فقال:"اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ"(1)

كما نهى الله تعالى عن أكل أموال الأيتام، وشبه أكلها كمن يأكل النار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (2).

وإن آكل أموال اليتامى مصيره إلى النار، فالله يقول مخاطباً أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (3)

وجعل من التكذيب بالدين الإساءة إلى اليتيم ودفعه وزجره، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (4) فاحرصوا إخوة الإيمان إن أردتم الفوز في الآخرة على الإحسان إلى الأيتام والمحافظة على أموالهم ورعايتهم، وإن خالطوهم فخالطوهم بإحسان وبحنان الأخوة، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (5)

واسمعوا هدي رسول الله ﷺ في ثواب الساعي على الأرملة والمسكين واليتيم، حيث يقول:"السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ"(6) والأرملة لا تخلو من الأيتام، كما أن المسكين قد يكون يتيماً، فيكون الساعي قد سعى على يتيم ومسكين في آن.

نسأله تعالى أن يجعلنا من القائمين على رعاية الأيتام والساعين عليهم بالبر والإحسان حتى نكون بجوار المصطفى العدنان، في بحبوحة الجنان، إنه هو الحنان المنان. وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

2- النساء:10.

3- المدثر: 42- 45.

4- الماعون:1- 3.

5- الإسراء:34.

6- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة.

تشيع في أيامنا هذه ظاهرة الجريمة بسفك دماء المسلمين، والاعتداء على أموالهم وأعراضهم، ويتم ذلك من خلال الحروب الداخلية التي تنشب بين فئات من أبناء الشعب الواحد، كما هو الحال في الصومال، أو من خلال إذكاء الفتن التي تعمل على تقسيم الوطن الواحد، وتحركها بعض دول المنطقة، كما يجري في اليمن السعيد، الذي فارقته السعادة منذ زمن، وحدث ولا حرج عن الذي يجري في بلاد الرافدين من تفجيرات تستهدف أماكن التجمع؛ كالأسواق والمساجد وغيرها من مقار الحكومة أو كليات الأمن والجيش، وما جرى ويجري في الجزائر، وما اكتوت به بلادنا المقدسة فلسطين جراء الانقسام الأسود، الذي أدى إلى تقسيم الوطن، والفصل بين الإخوة، في وقت أحوج ما نكون فيه إلى الوحدة وجمع الكلمة، وتوحيد الجهد لمواجهة عسف الاحتلال وظلمه، وإفشال مخططاته الرامية إلى ابتلاع الأرض وتهويدها، وأسرلة المدينة المقدسة، والنيل ـ من خلال المستوطنين ـ من المسجد الأقصى المبارك وسائر المقدسات، جراء الاقتحامات والإحراق، وحفريات الأنفاق التي وصلت إلى أساسات جدران المسجد.

وكأن أبناء هذه الشعوب، وكثيراً من أبناء شعوب الأمة الإسلامية، لا يقفون على حدود الله في تحريم القتل، ولا على هدي النبي ﷺ الذي نادى جموع المسلمين في حجة الوداع، وفي مواقع أخرى كثيرة، معلناً حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، قائلاً:"فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ"[1]

1- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ قال:"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ ... كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"[1]

وإن الآيات التي تحرم القتل، وتنفر من هذه الجريمة، وتغلظ عقوبتها، واضحة جلية في كتاب الله تعالى، منها:

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[3].

وقد شرع القصاص عقوبة لقاتل العمد، فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى ﴾[4]،وجعل الله القصاص سياجاً لحياة الناس وأمنهم، ورادعاً للمجرمين، فقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[5].

فلما عطل المسلمون إقامة الحدود والقصاص، شاعت هذه الفوضى التي تعيشها غالبية المجتمعات الإسلامية، وانتشرت جرائم القتل والاعتداء على الحرمات من أموال وأعراض، وغاب الأمن المنشود، الذي يحفظ الضرورات الخمس، وهي: النفس والنسل والمال والعقل والدين، هذه الضرورات التي جاءت الشرائع السماوية كافة لحمايتها ورعايتها والمحافظة عليها، إذ بدون ذلك لا تقوم الحياة ولا يصلح الأحياء.

إن نبينا ﷺ ـ وهو يبين حرمة الدماء والأموال والأعراض ـ يرسم ملامح المجتمع المسلم،

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

2- المائدة:32.

3- النساء:93.

4- البقرة:178.

5- البقرة:179.

ويبعده عن كل ما من شأنه أن يبعث الأحقاد، ويفتت بناء المجتمع، ويسيء إلى الأخوة الإسلامية والوشيجة الإيمانية، التي جمعت المسلمين وتجمعهم في كل زمان ومكان تحت شعار رابطة الإيمان وأخوة الإسلام، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] و"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ"[2].

ويرسم الصورة الكاملة المشرقة للمجتمع الإسلامي في حديثه الشريف:"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[3].

وقد تحقق هذا المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار، كما استمر على امتداد تاريخ المسلمين الطويل، إذ فتحت عمورية بسبب الاعتداء على امرأة مسلمة من أحد علوج الروم استغاثت بخليفة المسلمين المعتصم، فجهز جيشاً لنصرتها والانتصار لكرامتها وعرضها.

فهل سمع حكام المسلمين اليوم استغاثة الثكالى واليتامى، فعملوا على نصرتهم ورفع الضيم عنهم. وهل تناصحت مجتمعات المسلمين فيما بينها، ونهض أصحاب الفكر وقادة الرأي والمصلحون بواجبهم للجم هذه الفوضى العارمة في المجتمعات الإسلامية التي استباحت الحرمات، وانتهكت المحرمات، وأصبحت الجريمة سمة لهذه المجتمعات مع شديد الأسف.

وإذا تحدثنا بشيء من الخصوصية عن مجتمع المدينة المقدسة في بلاد الإسراء والمعراج، وجدنا ما يدمي القلب، ويذيب النفس ألماً وحسرة، على ما يجري من ارتكاب لجرائم القتل لأتفه الأسباب، والاعتداء على الأنفس والأموال دون تبصر أو تريث أو تثبت، وإنما بدافع العصبية العشائرية أو النعرة القبلية، وهما من أعمال الجاهلية التي نهانا عنها النبي ﷺ قائلاً:"دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"[4]

1- الحجرات: 10.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

3- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

4- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما.

كما شاعت في المعاملات المالية أعمال النصب والاحتيال تحت مسميات الاستثمار والتجارة، وهي في حقيقتها أكل لأموال الناس بالباطل، والله يقول: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1]،والرسول ﷺ يقول:"لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ"[2]،وقوله ﷺ:" مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[3].

وإذا كانت هذه هي حرمة الدماء والأموال، فإن حرمة الأعراض لا تقل عنها، فقد قرنها النبي ﷺ بحرمة الدماء والأموال، فهلا تخلى شبابنا عن هذه الظاهرة السيئة، ظاهرة التسكع في طرقات المدينة المقدسة وشوارعها، خاصة تلك الطرقات والشوارع القريبة من مدارس البنات وكلياتهن في المدينة، وهي ظاهرة سيئة لا تليق بأخلاق شباب في مدينة مقدسة تعاني ما تعانيه من ظلم الاحتلال وإجراءاته وإغراءاته لإفساد أخلاق الشباب، وإبعادهم عن معاني النخوة والشهامة التي ترفض الاحتلال، وتعمل على حماية الأخلاق والقيم والمبادئ الدينية والوطنية، وهو واجب جميع فئات أبناء المدينة المقدسة، وأبناء شعبنا الفلسطيني للوصول إلى مجتمع متماسك ومتمسك بقيمه وأخلاقه، يعمل بكل ما أوتي من طاقات للخلاص من الاحتلال، والوصول إلى الحرية والكرامة للإنسان والأرض والمقدسات، وما ذلك على الله بعزيز، إن اتبعنا هدي رسولنا الأسوة بحماية الدماء والأموال والأعراض، وعملنا بما يرضي الله تعالى، فهو القائل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [4]، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- البقرة:188.

2- مسند أحمد، كتاب أول مسند البصريين، باب حديث عمرو بن يثربي عن النبي ﷺ.

3- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار.

4- التوبة : 105.

لقد حرص الإسلام على استبقاء الحياة، وصون النفس، فحرّم سفك الدماء، وصور قتل النفس البريئة كقتل البشرية جميعاً، في قول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (1)

وقد عدّ ديننا الحنيف قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق كبيرة من الكبائر، ويشتد الإثم، ويعظم الجرم، حين تكون هذه النفس نفساً مؤمنة، فحرمة دم المسلم أعظم عند الله تعالى من حرمة الكعبة المشرفة، بل زوال الدنيا أهون عند الله من قتل المسلم، وقد دلت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على هذا المعنى، وفيها من الترهيب ما يكفي لردع من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، عن اقتراف هذه الجريمة الشنعاء.

فحرمة دم المسلم من أعظم الحرمات عند الله تعالى، وقتله من أكبر الكبائر، فالله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (2)

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (3). ووصف الله عباد الرحمن بأنهم لا يشركون بالله، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ (4)

وقد بين الرسول ﷺ الكبائر فقال: "أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ "(5)

1- المائدة:32

2- الأنعام:151

3- النساء:93

4- الفرقان:68-69

5- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى ومن أحياها.

كما عد الرسول الأكرم ﷺ قتل النفس من الموبقات ـ أي المهلكات ـ فيما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ "(1)

فانظر هداك الله أخي المسلم إلى عظم جريمة قتل النفس، فقد قرنها رسول الله ﷺ مع الشرك بالله والسحر الذي هو كفر بآيات الله، وفساد في البلاد والعباد.

وما زال المسلم في فسحة من دينه مالم يقترف جريمة القتل، التي يذهب وزرها وإثمها بأعماله الخيرة، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله:"لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا "(2)

وقد علق الشيخ ابن العربي على هذا الحديث فيما نقله الحافظ ابن حجر العسقلاني بقوله:"الْفُسْحَة فِي الدِّين، سَعَة الْأَعْمَال الصَّالِحَة، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْل ضَاقَتْ، لِأَنَّهَا لَا تَفِي بِوِزْرِهِ، وَالْفُسْحَة فِي الذَّنْب قَبُوله الْغُفْرَان بِالتَّوْبَةِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْل ارْتَفَعَ الْقَبُول"(3)

وقد روي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: " إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ "(4)، فمن ورط نفسه في هذه الجريمة؛ أي وقع فيها واقترفها، فقد وضع نفسه في مأزق لا نجاة منه.

فكيف بمن يستبيحون دماء المسلمين من المسلمين، وينتهكون حرماتهم؟ وهم يقرأون قول رسول الله ﷺ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ؛ الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ "(5)

وقول الرسول ﷺ:"... الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ .... كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"(6)

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

2- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم.

3- فتح الباري:233/12.

4- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم.

5- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

6- مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث آخر:" يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ فِي يَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ؛ قَتَلَنِي حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ "[1]

وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية؛ السلف والخلف، على حرمة دم المسلم وماله وعرضه، كما اتفق أهل السنة، وهذه هي عقيدتنا أن لا نكفر مسلماً من أهل القبلة بذنب.

وفي هذا المقام نذكر الذين يتهاونون في إطلاق وصف الكفر على المسلمين، أفراداً وجماعات، أن يتوبوا إلى الله، ويثوبوا إلى رشدهم، بدلاً من الوقوع في حرمة تكفير المسلم، وبعدها إدخال أنفسهم في ورطة لا مخرج منها بسفك دم المسلم، واستحلال عرضه وماله.

فإن حرمة دم المسلم حرمة عظيمة، مقدمة على حرمة الكعبة المشرفة، بل زوال الدنيا أهون على الله من قتل المسلم، لما ورد في الحديث الشريف :" لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ "[2]

وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:" رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا "[3]

هذا هو حكم الله تعالى في تحريم قتل المسلم بغير حق، وهذا هو هدي النبي ﷺ في بيان حرمة دم المسلم وماله وعرضه، وإن حرمة دم المسلم أعظم عند الله تعالى من هدم الكعبة، بل إن زوال الدنيا أهون عند الله تعالى من قتل المسلم بغير حق.

أما وقد بان واضحاً من النصوص القرآنية والسنة النبوية الشريفة لكل ذي عقل حرمة المسلم؛ دماً وعرضاً ومالاً، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمة سلفها وخلفها، فإننا نؤكد على كل الفتاوى الصادرة بهذا الخصوص، والتي تحرم قتل المسلم، أو الاعتداء على عرضه وماله، وتدعو إلى نبذ الفتن، ما ظهر منها وما بطن، تأسياً بهدي رسولنا الأسوة ﷺ، وصحابته الكرام، وأعلام الأمة العلماء.

وصلى الله وسلم وبارك، على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

1- سنن النسائي، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم.

2- سنن النسائي، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم.

3- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله.

الفصل السادس

الأخلاق والقيم		
43	رابط الجأش (الحلقة الأولى)	177
44	رابط الجأش (الحلقة الثانية)	182
45	ينهى عن الكذب	188
46	يشيد بحسن الخلق	191
47	يوصي بالتفاؤل وينهى عن القنوط	194

تسجل المواقف خصائص أصحابها، وعند التعرض للمواقف العصيبة يحسن الاستئناس بخير قدوة، الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي تحكي المحن عن خصائصه في مواجهتها، فقد تميز باليقين وعمق الإيمان والإخلاص والصبر والجلد، وقوة العزيمة، والشجاعة وتحفيز همم الأصحاب والأتباع، ونود هنا أن نعيش مع غيض من فيض من رباطة جأشه [1] ﷺ، وخير بداية تساق في هذا المقام للاستشهاد القرآن الكريم، فهو الأصدق قيلاً، وقد ذكر الله تعالى فيه ما يدل على رباطة جأش النبي الكريم محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ...﴾ [2]

ففي رحلة الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، يشد الرسول ﷺ من عضد صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو يرافقه فيها فيدعوه إلى أن لا يحزن، معبراً بذلك عن اليقين الذي يفرز رباطة الجأش التي تقود إلى مواجهة الأحداث والمواقف بشجاعة وعزيمة، حتى في أحلك الظروف والساعات، وأي شيء أصعب من أن تصل الملاحقة التي تستهدف قتله وصاحبه باب الغار الذي يختبئان فيه ؟ غير أنه عليه الصلاة والسلام يبدي ذروة رباطة الجأش بنهيه صاحبه في هذه الساعة العصيبة عن الحزن، ويفصح عن عمق يقينه بالله بقوله " إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا " وعن هذه الحادثة ورد في الحديث الصحيح عن أَنَس قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا. قَالَ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"[3].

---

1. الجأش، النفس، وقيل القلب، وفلان قوي الجأش أي القلب، فإذا اضطرب القلب عند الفزع، يقال: إنه لواهي الجأش، فإذا ثبت قيل: إنه لرابط الجأش، انظر لسان العرب 269/6.

2. التوبة: 40.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن.

وكيف لا يكون ﷺ الأسوة في رباطة الجأش ؟ وهو الذي جاء المؤمنين بوحي السماء يوصيهم به، فنقل لهم عن ربه خبر وصايا الملائكة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1].

وعلى صعيد آخر؛ فقد كان ﷺ عند غضبه أسوة في رباطة الجأش، وما كان يستسلم للغضب، كيف لا، وهو الذي أوصى سائل الوصية بأن لا يغضب، كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، "أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي. قَالَ: لَا تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ :لَا تَغْضَبْ"[2].

ولرباطة جأشه ﷺ حال الغضب، تشهد أحداث السيرة التي سجلتها صحاح الأحاديث، ومنها مواقفه ﷺ ممن تجاوزوا معه حدود اللياقة والأدب والشرع، كموقفه من زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كان عنواناً للفتنة وتربص الدوائر بالمسلمين، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله دلالات واضحة على رباطة جأشه ﷺ، وهو يعايش مثيرات الأمور ومستفزاتها، فقال رضي الله عنه :"كُنَّا فِي غَزَاةٍ ، فَكَسَعَ[3] رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَسَمِعَهَا اللَّهُ رَسُولُهُ ﷺ ، قَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا : كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، أَكْثَرَ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ : أَوَقَدْ فَعَلُوا؟! وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"[4]. فلم يطاوع الرسول ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طلب قتل ابن سلول جراء ما قال، ورد

1- فصلت: 30.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

3- ضربه على دبره، لسان العرب 309/8.

4- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز.

عليه برباطة جأش وحكمة وبعد نظر، مبدياً حذره من أن يظن الناس أنه يقتل أصحابه، وإلى جانب محافظته على هدوئه واتزانه في هذه الحادثة، في مقابلة الاستفزاز الحاصل فيها،كان موقفه واضحاً من نبذ العصبية، وتقبيح شأنها، فوصفها بأنها منتنة.

وتجلت رباطة جأشه ﷺ في أكثر من موقف وحادث مشابه، وإن اختلف الشخوص والزمان والصعيد، فموقفه اتسم بهذه الرباطة من حاطب بن أبي بلتعة، حين تعاطى مع ما يشبه الخيانة العظمى، فعن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ ـ وَهُوَ كَاتِبُ عَلِيٍّ ـ قَالَ: "سَمِعْتُ عَلِيًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ [1] فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً[2] مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى[3] بِنَا خَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا :أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا[4]، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ : مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ـ قَالَ سُفْيَانُ : كَانَ حَلِيفًا، لَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا_ أَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا،يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ[5] فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . . . ﴾[6].

1ـ موضع بين مكة والمدينة بقرب المدينة، فتح الباري 306/12.

2ـ الظعينة هنا الجارية، وأصلها الهودج، وسميت بها الجارية؛ لأنها تكون فيه، شرح النووي على مسلم 40/9.

3ـ تجري، المرجع السابق 56/16.

4ـ بكسر العين أي شعرها المضفور، وهو جمع عقيصة، المرجع السابق 56/16.

5- معناه الغفران لهم في الآخرة، شرح النووي على مسلم 56/16.

6- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب.

والرسول الأسوة محمد ﷺ كان خلقه القرآن، الذي دعاه ليسلك سبيل أولي العزم، الذين تميزوا برباطة الجأش في الصبر والحلم وكظم الغيظ، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[1] وهو ﷺ أول من تربى على مائدة القرآن الذي أرسى مقومات رباطة الجأش، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]، وكان ﷺ الأسوة الحسنة لأتباعه ومحبيه في رباطة الجأش، فكانوا يقتفون أثره وهم يواجهون الصعاب تلو الصعاب، والمحن إثر المحن، فهم الأعلون، وسيبقون كذلك ما دام فيهم يقين بالله، وما دام إيمانهم برسالة نبيهم الحبيب ﷺ قائماً، فهم أولياء الله الذين بشرهم برباطة جأشهم، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]

وعلى صعيد بيته وأسرته، كان ﷺ يتعامل برباطة جأش حين تواجهه الخطوب والأحزان، فحزن لموت ابنه إبراهيم، ولكنه أرسى للمؤمنين نبراساً في رباطة الجأش إزاء ذلك، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: "دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ[4] وَكَانَ ظِئْرًا[5] لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ[6]، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ[7]، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟![8]، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ،

1- الأحقاف: 35.

2- آل عمران: 139.

3- يونس: 62.

4- يطلق على كل صانع، يقال: قان الشيء إذا أصلحه، فتح الباري 173/3.

5- أصل الظئر من ظأرت الناقة، إذا عطفت على غير ولدها، فقيل ذلك للتي ترضع غير ولدها، وأطلق ذلك على زوجها، لأنه يشاركها في تربيته غالباً، المرجع السابق 173/3.

6- أي يخرجها ويدفعها، عمدة القاري 102/8.

7- أي يجري دمعهما، المرجع السابق 102/8.

8- فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفاً عليه، أي الناس لا يصبرون على المصيبة، وأنت تفعل كفعلهم، كأنه تعجب لذلك منه، مع عهده منه أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله " إنها رحمة " أي الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على الولد، لا ما توهمت من الجزع، فتح الباري 174/3.

ثُمَّ أَتبعها بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْعَيْنَ تدمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ "[1].

حتى عندما علم بدنو منيته ونعيت له نفسه، بقي ﷺ محافظاً على رباطة جأشه، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:" أَنَّ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالُوا: فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَجَلْ أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ"[2]. وظهرت آثار رباطة الجأش جلية إثر ذلك، فقد نعت إليه سورة النصر نفسه، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يجزع، ولم يتشبث بالدنيا، بل أخذ يجتهد في العبادة أكثر، ويقدم القربات للآخرة، ففي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: " مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي"[3].

جعلنا الله من المحافظين على رباطة الجأش، تأسياً بنبينا الحبيب محمد صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغراليامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين. ومع صور أخرى من رباطة جأشه ﷺ في الحلقة القادمة إن شاء الله.

1- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون.

2- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن.

امتداداً لما تيسر عرضه في الحلقة السابقة عن رباطة جأشه ﷺ، نتواصل في هذا المقام مع المزيد من صور هذه الرباطة وأبعادها، عسى أن يكون في ذكرها عبرة، وبخاصة في حياة المسلم المعاصر الذي يعاني من الاضطهاد والقهر، واغتصاب الحقوق، والتعدي على الحرمات في وضح النهار، وتحت نور الشمس الساطع، فهو يتطلع إلى أن يربط الله على قلبه، حتى يثبت على حقه ودينه ولا يزيغ عنهما، أسوته في ذلك الرسول ﷺ الذي كان مثالاً للشجاعة في أصعب الظروف، وأشد المواقف، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ. قَالَ: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً؛ سَمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: لَمْ تُرَاعُوا[1]، لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَدْتُهُ بَحْرًا[2]ـ يَعْنِي الْفَرَسَـ"[3].

وتدل هذه الحادثة على ما تحلى به النبي ﷺ من رباطة جأش في الوقت الذي أصيب به الناس بالفزع والهلع.

وفي غزوة حنين، أصابت المسلمين الجراح، ولحق بهم الفزع، ومن هول الموقف هرب بعضهم، بل جلهم، وذكر الله خبر ذلك في قرآنه الكريم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [4]

1ـ أي روعاً مستقراً أو روعاً يضركم. وفيه فوائد: منها بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم، حتى كشف الحال، ورجع قبل وصول الناس.(صحيح مسلم بشرح النووي) 67/15.

2- واسع الجري، نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم 2423/6.

3- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا فزعوا بالليل.

4- التوبة: 25.

وفي خضم اشتداد الكرب على المسلمين في هذه الموقعة وجدنا الرسول الأسوة ﷺ رابط الجأش ثابتاً في أتونها، يردد:"أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا، ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب"[1].

ولم تكن تجربة حنين فريدة، بل مرت بالرسول ﷺ والمسلمين أحداث، برزت فيها رباطة جأشه ﷺ في ظروف مشابهة، فثبت ﷺ في خضم المأزق الذي تورط فيه المسلمون في غزوة أحد، والذي ضيق عليهم الدنيا بما رحبت، ولم يقتصر على ممارسة الثبات بنفسه، بل صار يحفز أصحابه الذين ثبتوا معه على مواجهة العدو بصلابة وقوة وشجاعة، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:" مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُفَدِّي أَحَدًا بِأَبَوَيْهِ إِلَّا لِسَعْدٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي"[2]

وفي غزوة حمراء الأسد شاهد عملي آخر على هذه الرباطة، ومعلوم أنها كانت بعد غزوة أُحد، التي نزل بالمسلمين فيها كرب عظيم، وأصيب فيها ﷺ بجروح، وأشيع أنه قتل، وبعد انتهائها، توقع الرسول ﷺ أن ترجع قريش لتُغير على المسلمين حتى تقطف ثمرة أُحد، فخرج لملاقاتهم، ولم يطلب من أحد الخروج معه إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا له وخرج وإياهم، وأثنى الله على هذه الفئة الصادقة المثخنة بالجراح التي لم تتردد في التأسي برباطة جأش نبيها وقائدها الحبيب المصطفى ﷺ، فاستجابت لنداء الواجب، ولم تتعذر بالجراح وغير ذلك من الأعذار التي قد تكون مسوّغات مقبولة للتخلف عن الاستجابة، وأنزل الله ثناءه عليهم في آيات الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

ولما اشتكى إليه أصحابه من شدة الأذى الذي يصيبهم من قومهم بسبب إسلامهم، جاءوه طالبين أن يدعو الله بالنصر لدينه وأتباعه، لكنه لم يستعجل بعجلتهم، واستشهد لهم بمثل مما لحق

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب بغلة النبي ﷺ البيضاء.

2- سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

3- آل عمران:172.

بالمؤمنين السابقين، حيث بلغت معاناتهم مبلغاً عظيماً، لكنهم ثبتوا وصبروا وما فتنوا عن مبادئهم، فعن خباب بن الأرت قال:"شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ، فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟! أَلَا تَدْعُو؟! لَنَا فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"(1).

فالرسول الأسوة ﷺ أدى هنا درساً تربوياً للمؤمنين، فالأمور تتم وفق حكمة الله وإرادته، والله لا يعجل بعجلة الخلق، والصراع الذي يجري بين ممثلي الحق من الناس في مقابل حاملي لواء الباطل، تتم مجرياته وتكون نتائجه في الإطار نفسه، ووفق الحكمة الربانية وتقديره سبحانه للأمور.

وكانت رباطة جأشه ﷺ تعبر عن تقديره للمستحقات التي تترتب على حملة رسالة الإسلام العظيمة للعالمين، فلم يتخل عن هذه الرباطة وهو يواجه الأذى من الذين جاءهم بالرحمة وطوق النجاة من النار، فلما لم يجد من قومه الترحاب، ووجد من كفار مكة صنوف الأذى، نزل عليه أثناء ذلك جبريل الأمين، يعرض عليه مدد السماء، حسب ما ورد في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: "هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ

1- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين! فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا "[1].

فلم تثنه الشدائد عن المحافظة على رباطة جأشه، الذي ضمن له استحضار غايته في أحلك الظروف ومع ألد الأعداء، فدعوته تهدف إلى إنقاذ الخلق من الضلال إلى الهدى، ومن النار إلى الجنة، فدعا لأعدائه أن يرزقهم الله ذراري يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً.

وكان ﷺ يبلسم جراح أتباعه وهم يعانون صنوف الأذى بحثهم على الصبر، ووعدهم بالجنة، فلما مر يوماً بعمار بن ياسر وأمه وأبيه، وهم تحت وطأة التعذيب، خاطبهم قائلاً:" صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"[2]

ووصيته هذه مستوحاة من آيات الذكر الحكيم التي نزل بها الروح الأمين على قلبه هداية للعالمين، فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[3] .

ولم يكن ﷺ ينعم برغد العيش والأمن والسلامة، وهو يحث أصحابه على الصبر والاحتمال، بل كان يعاني مثلهم، وأبلغ مما يعانون، ولحق به ﷺ أشد صنوف الأذى وأنواعه، وكان يواجه ذلك برباطة جأش مميزة، ففي الصحيح من حديث عروة بن الزبير رحمه الله قال : "سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال :بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال :﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[4]"[5].

1ـ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.

2ـ الألباني، فقه السيرة، حديث جابر بن عبد الله.

3ـ النحل: 127.

4ـ غافر: 28.

5ـصحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين.

ولم تفض المحن والشدائد بالغة ما بلغت إلى زعزعة يقينه ﷺ بحقه ومبادئه، وثقته بأن العاقبة ستكون لدينه، إيماناً بما أوحاه الله إليه من أخبار ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] وتكرر ذكر مضمون هذا الوعد القرآني في سورة الصف الآية (8) فإذا كان الله يأبى إلا أن يتم نوره، فهل لأحد قدرة أو إرادة تنفذ بخلاف ذلك، إنه المحال بعينه، وقد أكد ـ سبحانه ـ الوعد بحفظ دينه، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل في كثير من الآيات القرآنية التي عبرت عن هذه المعاني بجلاء لا لبس فيه ولا غموض، ومن تلك الآيات، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2] فهو وعد قطعه الله على نفسه، وبين غايته وأهدافه، فقال سبحانه: ﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[3] وقال جلت قدرته: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[4]

فكيف بمن تلقى هذه الآيات الكريمة وغيرها من آيات القرآن الكريم، وفقه معانيها، وبلّغها للناس ؟ كيف له أن لا يكون رابط الجأش ؟ فهو على يقين جازم مستوحى من هدي القرآن الكريم بأن المشركين والكافرين والمجرمين لو تضافروا على صعيد واحد ضده لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولن يزيدهم كيدهم ضده إلا خيبة وخساراً، والذي يحدث في بعض الجولات والأحيان من غلبة للباطل وأهله ما هو إلا سراب خادع، لن يلبث أن يزول، فالعاقبة للمتقين، والله يعزز رباطة جأش حملة دعوة الإسلام عبر الزمان، فيأمرهم بالثبات والإصرار على حمل راية

1ـ التوبة:32.
2ـ التوبة:33، والصف:9.
3ـ يونس:82.
4ـ الأنفال:8.

دعوتهم للعالمين، سواء لقيت دعوتهم قبولاً من الناس، أم وجدوا منهم الإعراض والكيد، قال تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

ونود التنويه هنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر لفظ الجأش في القرآن الكريم، لكنه ذكر معناه، فذكر ربطه على القلوب في ثلاثة مواضع قرآنية؛ وردت في سور الأنفال والكهف والقصص، ففي سياق الحديث عن تأييده المؤمنين في غزوة بدر، يقول تعالى: ﴿ . . . وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[2] وخلال عرض رعايته سبحانه لأصحاب الكهف يقول جل شأنه: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . . ﴾[3] ولما علمت أم موسى بأن وليدها ورضيعها الذي ألقته في اليم قد التقطه آل فرعون، كادت تفصح عما صنعت، وتكشف السر، لولا أن ثبّت الله قلبها، فقال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

1ـ غافر:14.

2ـ الأنفال:11.

3ـ الكهف:14.

4ـ القصص:10.

من البدع المذمومة التي انتشرت في المجتمعات الإنسانية، ومنها المجتمعات العربية والإسلامية بدعة كذبة نيسان، حيث يجري الترويج لهذه العادة السيئة والمتكررة، من خلال وسائل الإعلام التي تتناقلها وكأنها أحد ثوابت هذا الشهر، وأحد التقاليد والعادات التي لا يستغني عنها المجتمع، أو على الأقل أحد مظاهر العادات الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك.

مع أن هذه الظاهرة ـ أي كذبة نيسان ـ تخالف أصول ديننا وأخلاقنا الإسلامية، هذا الدين الذي حث على الصدق وتحريه، وأخذ بيد الإنسان إلى مكارم الأخلاق، وكريم الصفات ضمن منهاج واضح يقود إلى الفضائل، بعيداً عن كل الرذائل، أو ما من شأنه أن يخرم المروءة، ويخدش الخلق.

نرى ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى، منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[2] وقد وصف الله المؤمنين المجاهدين بالصدق، فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[3].

أما الكذب والكاذبون، فقد ذمهم الله تعالى، وتوعدهم بعذابه وخزيه في كثير من آياته، التي تلعن الكذب وأهله، ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[4] ووصف الكافرين بأنهم يفترون الكذب ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[5] وجعل الرسول

1ـ التوبة: 119.
2ـ الأحزاب:24.
3ـ الأحزاب:23.
4ـ آل عمران:61.
5- النحل:105.

ﷺ الكذب من علامات النفاق، فقال ﷺ:" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ"[1]. فالكذب من أبرز صفات المنافقين، لأن النفاق يقوم على الاختلاف بين الظاهر والباطن، والوسيلة الكبرى للمنافق حتى يؤدي أدوار النفاق، هي خصلة الكذب، لأن الصدق يفضح حياته المتناقضة. وإذا ألف الإنسان الكذب ومارسه في حياته، فإنه ينحط بنفسه حتى يكتب عند الله كذاباً، وبالتالي فإن نفسه تنشرح لارتكاب المعاصي والآثام التي عاقبتها الشقاء في النار، كما أن الكذب يهدي إلى الفجور، لأن الكذب ظلمات في القلب، وتكدير لصفاء النفس، فالإنسان حينما يكذب؛ يظهر بشخصية مستعارة تتناقض مع شخصيته الأصلية، فيتعامل مع الناس بسلوك مزدوج، تطغى فيه مرة شخصيته الأصلية، ومرة أخرى تطغى فيها شخصيته المستعارة الكاذبة.

ومن يمارس الكذب يتورط في كثير من المواقف، ويفتضح أمره، ويقع في التناقض، فيضطر لتلافي الوقوع في هذا التناقض، إلى أن يرتكب جرائم أخرى من الكذب ليستر نفسه.

ويأتي الكذاب في مقابلة الصديق، وإن مجرد المقارنة بين المنزلتين والمكانتين، ليعد أقوى منفر عن الكذب، فأي عاقل يقبل لنفسه أن يمحى من سجل الصادقين والصديقين، ليثبت في سجل الكذابين ، ولعل حديث الرسول ﷺ الذي أخرجه مسلم، يصور هذه الصورة بأجلى مظاهرها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال:" عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"[2].

فالصدق من أبرز صفات المؤمنين، لأنه انسجام بين الظاهر والباطن، فلا ينطق اللسان إلا بما يعتقده القلب، وحياة المؤمن تقوم على الوضوح والانسجام والتكامل.

1- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

كما أن الصدق مؤشر من مؤشرات الإيمان، فكلما كان الإنسان يتحرى الصدق، ويتورع عن الكذب، كان أقرب إلى حياة كاملي الإيمان من الصديقين.

وفي موقف ذم خصلة الكذب، وتنافيها مع الإيمان، يقول الرسول ﷺ حينما سئل" أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ لَا"[1].

فقد تضعف النفس إلى درجة الجبن، كما يمسك الإنسان عن البذل حرصاً على الدنيا ومتاعها، ومحبة في جمع المال، والله يقول: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[2].

وفي التنفير من الكذب، يقول الرسول ﷺ:"يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا، إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ"[3]. وفي هذا ما فيه من الدلالة على فظاعة الكذب، الذي يتناقض مع حقيقة الإيمان، وما جبلت عليه نفس المؤمن.

كما أن الكذب يبعد صاحبه عن مواطن الرحمة، وعن صحبة الأخيار من الناس والملائكة، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله أن يسلكنا في سبيل الصادقين والصالحين، وأن يبعدنا عن الكذب والكذابين، حتى نفوز برضا الله في الدنيا والآخرة، ونستظل تحت لواء رسولنا الأسوة، إمام الصادقين، وقدوة العاملين، ونرد على حوضه الشريف، نشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبداً.

وصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا المصطفى، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، الذين صدقوا الله فصدقهم، فكانوا من الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

1- موطأ مالك، كتاب الجامع، باب "وحدثني مالك أنه بلغه أن عبد الله بن مسعود كان يقول".

2- الفجر:20.

3- مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو.

لما كانت الأخلاق الكريمة جزءاً من هذا الدين العظيم وركيزة أساسية في بنيان الفرد والجماعة، فقد أولاها الرسول الأسوة ﷺ، عنايةً فائقةً واهتماماً ملحوظاً، وأشاد بأصحاب الخلق الكريم، وبين أن المؤمن يدرك بحسن خلقه منازل الصديقين وعباد الله الصالحين، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله:" إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ"[1]، فما أعظم هذه المنزلة! وما أرفع هذه الدرجة التي ينالها المؤمن بحسن خلقه ! فقد وعد الله الصائمين والقائمين الأجر الجزيل والثواب الكبير على صيامهم وقيامهم، يكفي في ذلك قول الرسول ﷺ :"..مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[2] وقوله عليه الصلاة والسلام:"مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا"[3] وقد أثنى الله جل وعلا على القائمين والراكعين ووعدهم الأجر والثواب ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [4].

فحسن الخلق طريق إلى بلوغ المنازل الرفيعة والدرجات العالية في الدنيا والآخرة، فصاحب الأخلاق محل احترام وتقدير الناس في الدنيا، كما أنه ينال بالأخلاق الكريمة الدرجات العالية في الآخرة، وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام أن محاسن الأخلاق تسع الناس أكثر من إنفاق الأموال، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق"[5] ويكفي الأخلاق الكريمة رفعة ومكانة أن الله جل وعلا وصف بها رسوله الأكرم وحبيبه المقرب بالخلق العظيم فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [6]وحينما سئلت السيدة عائشة،

1- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق.

2- سنن النسائي، كتاب الصيام، باب ثواب من قام رمضان.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه.

4- النساء:162.

5- أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، 459/10، مصنف ابن أبي شيبة 212/5.

6- القلم:4.

رضي الله عنها، عن خلق النبي الكريم محمد ﷺ قالت:" كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"[1] والقرآن الكريم هو كلام الله ووحيه إلى النبي ﷺ، لإنقاذ العباد من عبادة الأصنام والأوثان وأوضار الجاهلية إلى عبادة رب العباد سبحانه وتعالى. وهو الكتاب الخالد على الزمان حفظه الله تعالى بحفظه ليكون للمسلمين، بل للعالمين دستوراً ودليلاً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وهو معجزة الرسول ﷺ، على امتداد الزمان وتعاقب الليالي والأيام، وبهذا الكتاب الكريم وبالخلق العظيم الذي حباه الله لرسوله الأكرم ﷺ، ربى الرسول ﷺ، أصحابه الكرام فكانوا النموذج الإيماني الكامل؛ عقيدةً وعبادةً وخلقاً وعطاءً وجهاداً وفداء، فأخرجوا الناس بهذا الدين وهذه الأخلاق الفاضلة من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ونشروا دعوة الحق والخير بالكلمة الطيبة والخلق الحسن، ومن أسلم إعجاباً بإخلاق المسلمين وحسن معاملتهم أكثر بكثير ممن أسلم جراء الحروب والفتوحات،كما أن حسن الخلق علامة على إيمان المؤمن، بل على كمال إيمانه لقوله عليه الصلاة والسلام "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا"[2] فكمال الإيمان من حسن الخلق؛ لأن من تحلى بالأخلاق فقد تخلى عن كل صفة دنية أو نقيصة تلحق بصاحبها ذماً في الدنيا، وبعداً عن منازل الصالحين في الآخرة. ومحاسن الأخلاق من أسباب محبة الرسول ﷺ لصاحبها وقربه من مجلسه يوم القيامة، فقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قوله:" أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا"[3] وفي هذا ما فيه من علو مرتبة صاحب الخلق، وقربه من الرسول ﷺ، يوم القيامة حيث الفوز بمحبة الرسول الأكرم ﷺ، والقرب منه، ومن فاز بمحبة الرسول ﷺ، كان قريباً منه، ومن كان قريباً من الرسول، عليه الصلاة والسلام، كان قريباً من الله تعالى. لأن النبي ﷺ، في أعلى المنازل وأسمى المراتب يوم القيامة عند الله تعالى، إذ هو صاحب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود عند رب السموات والأرض، رب الدنيا والآخرة، والمتفرد بالملك يوم القيامة، قال تعالى :﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4].

1- مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة، رضي الله عنها.

2- سنن أبي داود، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه.

3- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة،مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما.

4- غافر:40.

ومن فاز بمحبة النبي ﷺ وبالقرب منه، نال محبة الله تعالى والقرب منه، وحاز على الحسنى وزيادة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (1).

وذلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وما دامت هذه ثمار محاسن الأخلاق، وكلها خير في الدنيا والآخرة، إذ صاحب الخلق الحسن محبوب لدى الناس ويحبه الله ورسوله، وهو قريب من الرسول ﷺ في منازل الآخرة ومقاعدها وذلك الفوز العظيم .

فعلينا معشر المسلمين وإخوة الإيمان أن نحرص على محاسن الأخلاق ومكارمها، ونقوم أنفسنا وفقّها، ونلتزمها في جميع أحوالنا وتصرفاتنا حتى تشيع في المجتمع القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة تأسياً برسولنا الأسوة ﷺ، واقتداءً بأخلاق السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين بإحسان. فمن زاد عليك بخلقه زاد عليك بالفضل والخير، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

وفي الختام؛ نسأل الله تعالى الذي أحسن خَلْقنا في أحسن تقويم، أن يحسن أخلاقنا، وأن يسبغ علينا ثوب الفضيلة والوقار والعز والإيمان، فنغدوا أحباباً لله تعالى وأحباباً لرسوله ﷺ، نفوز بمحبته وندنو من مجلسه يوم القيامة، وهذا هو الفوز العظيم، قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (2). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (3).

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم، واستن سنتهم إلى يوم الدين .

1- يونس:26.

2- الشعراء:88-89.

3- لقمان:33.

كثيرة هي الآيات القرآنية التي وردت فيها ألفاظ توحي بالأمل، ومن أبرزها لفظ البشرى بمشتقاته وصيغه المختلفة، ومن ذلك ما ورد في الآيات الأولى من سورة البقرة، من زف البشرى للمؤمنين بصريح لفظها، حيث قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وتكررت تلك البشرى للمؤمنين في سورة البقرة وغيرها من السور القرآنية، فيقول تعالى: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وكان من أبرز غايات تكليف الرسول ﷺ، بتبليغ رسالة الإسلام عن الله، أن يكون مبشراً ونذيراً، فخاطبه الله بذلك قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[4]

ومن يؤمن برسالة الإسلام عقيدة ومنهجاً، يصبر على البلاء في أحلك الساعات، أملاً في الفرج القريب، ونيل أجر الصابرين، منطلقاً من استشعاره هدي الله المتضمن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[5]

والمؤمن على أمل دائم بالله، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6]

1- البقرة:25.
2- البقرة:223.
3- الأحزاب:45.
4- الإسراء:105.
5- البقرة:155.
6- آل عمران:171.

أمّا من يظن بالله الظنون، ويأس من رحمة الله، فيبكته الله ليزداد بؤساً وحسرة فوق يأسه وقنوطه وظنه المشين، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (1)، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (2)

وورد في سنة الرسول ﷺ القولية والفعلية ما يعزز الحرص على بث روح التفاؤل بين المسلمين، فحين جاءه الصحابة يشكون حالهم وصعوبة ما يلقون من أعدائهم بشرهم بقوله:"... وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"(3)

وهذا التعزيز وارد في نصوص شرعية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (4)

وهناك مجالات أخرى شملها الحرص على بث روح التفاؤل فيها، ولم يكن محصوراً بميدان الاستبشار بالنصر والغلبة في ساعات المعاناة والشدة، ومن ذلك حديث الرسول ﷺ الوارد بشأن الذي غلبته الذنوب وغرق في المعاصي، حيث أورد للصحابة خبر الذي استفحل في ارتكاب جرائم القتل، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ: فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا؛ فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ "(5)

1- الحج:15.

2- يوسف:87.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

4- الأنفال:10.

5- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

وهذا ينسجم تماماً مع قوله ﷺ بهذا الصدد، في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه ﷻ: حيث قال:"قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[1]

وهو ينسجم كذلك مع ما جاء في القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2]، وإذا كان الشاعر يرى أن لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، فإن مما يستوحى من دين الإسلام أنه لا إيمان مع اليأس، ولا يأس مع الإيمان.

ويبدو الحرص النبوي على بث روح التفاؤل واضحاً في حالات الجدب وانحباس الغيث، فحين جاء بعض الصحابة يشكون ما يجدون من آثار انحباس قطر السماء، علمهم الرسول ﷺ، بفعله وقوله كيف يبحثون عن نور في نهاية النفق، فعلمهم الاستسقاء، وهي صلاة يتمثل فيها السير العملي على نهج التفاؤل، نحو تغيير الحال البائس إلى حال الخير والسعة، وقد تحدث الصحابة عن تجربتهم في هذا المجال، فعن أنس بن مالك" أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ[3] وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِثْنَا، قَالَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً[4] وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ[5] قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: فَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا[6]. قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ

1- سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده.

2- الزمر:53.

3- قال القاضي عياض : سميت دار القضاء لأنها بيعت في قضاء دين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كتبه على نفسه وأوصى ابنه عبد الله أن يباع فيه ماله، شرح النووي على مسلم 191/6..

4- القزعة: هي القطعة من السحاب، عمدة القاري 39/7.

5- أي نحن مشاهدون له وللسماء، وليس هناك سبب للمطر أصلاً.

6- أي قطعة من الزمان، وأصل السبت القطع، فتح الباري 504/2.

الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ[1] وَالظِّرَابِ[2] وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، فَانْقَلَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ"[3]

وقد شاهد الناس في الأيام القليلة الماضية كيف انهالت السماء بماء منهمر، بعد أن ظن بعضهم أن هذا العام ينتابه الجدب والقحط وقلة في كميات الأمطار، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4]، فهذه الآية الكريمة وجدت تفسيرها واضحاً على أرض الواقع، حيث نزل الغيث من السماء، فارتوت الأرض، وارتفع منسوب البحار والبحيرات والأنهار، والآبار الجوفية، وعادت للمُزارع البسمة، وغمره الأمل في أن يجد موسماً زراعياً ناجحاً إن شاء الله، وينسجم هذا مع جزيل العطاء الرباني، الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ . . .وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ . . .﴾[5]

لكن هذا العطاء يستوجب شكر الباري ﷻ، وإلا انقلب سخطاً ووبالاً والعياذ بالله، أما الصالحون من الناس فقد وعدهم الله بغيث السماء، جزاء صلاحهم واستغفارهم وإنابتهم إليه سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[6] وقد ورد استخدام وصف المدرار لغيث السماء في ثلاث آيات قرآنية، منها الآيتان السابقتان في سورتي الأنعام وهود، والثالثة الآية 11 من سورة نوح.

فما عند الله قريب قريب، ولكن بعض الناس يستعجلون، فإذا أراد سبحانه شيئاً، فإنما يقول له كن فيكون؛ ومن تترسخ هذه الحقيقة عقيدة في فؤاده، فإنه يبقى على أمل مع الله خالقه، دون أن تشوب ذلك أية شائبة من شوائب القنوط واليأس.

1- الإكام بكسر الهمزة وقد تفتح وتمد : جمع أكمة بفتحات، وهو التراب المجتمع، وقيل: هي الهضبة الضخمة، وقيل الجبل الصغير، وقيل ما ارتفع من الأرض، وقيل هي أعلى من الرابية وقيل دونها، لسان العرب 569/1.

2- الظراب، بكسر المعجمة وآخره موحدة جمع ظرب بكسر الراء وقد تسكن. وقال القزاز: هو الجبل المنبسط ليس بالعالي، وقال الجوهري: الرابية الصغيرة، الفائق 375/2 في غريب الحديث/ الزمخشري.

3- صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء.

4- الشورى:28.

5- الأنعام:6.

6- هود:52.

وتتجلى الحاجة للتفاؤل والأمل، في مجال الأرزاق، وبخاصة حين يكون الضيق في العيش، ففي القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، ما يبعث على الأمل بالرزق، فالله تعالى يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (1)

ووجه الله من يضيق ذرعاً بولده لقلة ذات اليد إلى التفاؤل برزقه وإياهم، وهو وعد تضمنه قوله تعالى: ﴿ . . .وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (3)

أما المرضى فإنهم من أحوج الناس لنفحات الأمل التي ترشد إليها آيات القرآن وسنة الرسول ﷺ، فنبي الله الذي يضرب به المثل في الصبر على شدة المرض، أيوب عليه السلام، يذكره الله بقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (4)، فقد وجد عليه السلام أن في دعاء الله أمل في كشف الضر، ونيل الشفاء من الداء، ويتوافق مع هذا موقفُ سيدنا إبراهيم عليه السلام، حين استعرض أمام قومه صفات ربه ﷻ، فكان مما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (5)، فهو يعقد الأمل حال مرضه على شفاء ربه.

وفي نهي النبي ﷺ، المريض عن تمني الموت دليل واضح يؤكد الحرص على أن يعيش الإنسان على الأمل بالخير، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي"(6). وفي روايات أخرى يبرر الرسول ﷺ، نهي المريض عن تمني الموت، وذلك بما يتسق مع نبراس الأمل الذي يحييه الإسلام في نفوس أتباعه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ"(7).

1- الذاريات:22-23.

2- الأنعام:151.

3- الإسراء:31.

4- الأنبياء:83.

5- الشعراء:80.

6- صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت.

7- صحيح البخاري، كتاب التمني، باب ما يكره من التمني.

وفي هذا السياق يأتي التحذير النبوي من الإقدام على ارتكاب جريمة الانتحار، التي تشكل هروباً من الدنيا بطريقة تطغى عليها المعصية لله، واليأس من رحمته وفرجه، والرسول ﷺ، توعد المنتحر بعذاب بئيس يوم القيامة، على غرار طريقة الانتحار وبنفس أدواته وكيفيته، ولكن الأثر في العذاب أكبر، والألم أقهر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا"[1].

والرسول ﷺ، يجعل المؤمن يعيش حياته في حركة محفوفة بالأمل في الخير في جميع ظروفه وأحواله، فعَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[2].

فهذه نفحات من معين الهدى المستقى من رسالة الإسلام التي بلغها الرسول الأسوة عن ربه، لينقذ العالمين من الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاء والإحباط واليأس والقنوط، إلى السعادة والأمل والتفاؤل والرجاء، هدانا الله للعمل على نهج هداه، لنفوز بخير الدين والدنيا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء.

2- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

الفصل السابع

التداوي وأهمية الوقت		
48	يحث على التداوي	201
49	يرسي مبدأ العلاج الوقائي	205
50	يبين أهمية الوقت	209

يواجه العالم في هذه الأيام انتشار مرض انفلونزا الخنازير، الذي ينتقل بالعدوى من خلال تنفس المصاب به أو عطاسه إلى الآخرين، وقد نبهت منظمة الصحة العالمية وكل المؤسسات الطبية المعنية بصحة الإنسان وسلامته، إلى ضرورة اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة للوقاية من هذا المرض، والحد من انتشاره، ومعالجة الحالات المرضية الفعلية، وكل هذه الإجراءات والاحتياطات من أجل محاصرة هذا المرض في أضيق نطاق، حتى لا يصل إلى درجة الوباء الذي قد يصيب الملايين من الناس في هذا العالم.

وقد حرص الإسلام من خلال هدي النبي الأسوة ﷺ على بيان الأحكام المتعلقة بالداء والدواء، والحث على الأخذ بالأسباب المؤدية إلى المحافظة على صحة الإنسان وسلامته، فقد روى أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ عن النبي ﷺ قَالَ:" قَالَتْ الْأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَدَاوَى؟ قَالَ: نَعَمْ؛ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً، إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ: دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ"[1].وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً"[2].

من خلال هذه الأحاديث الشريفة وغيرها، يبدو واضحاً حث النبي ﷺ على طلب الدواء لكل داء، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى منع المرض وانتشاره، وذلك بالعمل على المحافظة على بيئة نظيفة تحاصر التلوث وتحد منه، وتقضي على كل العوامل المؤدية إلى انتشار الأمراض وحصرها، إذا وقعت في أضيق المجالات بالعمل على معالجة المصاب، والتنبيه إلى كيفيات الوقاية من هذا المرض من خلال كل الوسائل المتاحة، كوسائل الإعلام والعناية والتثقيف الصحيحين، بإعطاء المعلومات الدقيقة حول المرض، وكيفية انتشاره، وسبل معالجته، وبيان أعراضه، حتى لا

1- سنن الترمذي، كتاب الطب عن رسول الله، باب ما جاء في الدواء والحث عليه.

2- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

يسود الهلع بين أوساط أبناء المجتمع، فدعوة الرسول ﷺ واضحة وجلية في الحث على التداوي، والأخذ بكل الأسباب المؤدية إلى الشفاء من المرض، وهذه مسؤولية كبيرة تشارك فيها الدولة، كما يشارك فيها أفراد الشعب، لأن الجميع معني بالمحافظة على الصحة العامة، وحماية الأبدان والنفوس، التي جاءت الشريعة الإسلامية لصيانتها والمحافظة عليها، فجعلت حماية النفس والمحافظة عليها من الضرورات التي لا تستقيم الحياة دون رعايتها والمحافظة عليها.

فشرعت الحدود والقصاص وضمان الجنايات على الأعضاء، كل ذلك لحماية هذه النفس التي عصم الله دمها إلا بحقه، وفي مجال الصحة العامة والوقاية من الأمراض المعدية والسارية، والتطبيب، وطلب الدواء لكل داء، جاءت أحكام الطب والتداوي في هدي النبي ﷺ قولاً وفعلاً وممارسة، فهناك الأحاديث القولية الكثيرة التي أمرت بالطب والتداوي والبحث عن علاج الأمراض. منها قوله ﷺ:"مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ"(1)وقال ﷺ:"فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ(2)"(3)

فهذان الحديثان الشريفان وغيرهما من الأحاديث الشريفة تدعو إلى المداواة، وتبين أنها من أسباب الشفاء، وأن الأدوية أسباب جعلها الله وسائل للشفاء، والأخذ بسنة الله في كونه، وهذا لا يتنافى مع عقيدة التوكل على الله تعالى، إذ إن جميع الأسباب ومسبباتها رهن بإرادة الله تعالى وقدره، فهو سبحانه الذي خلق الأسباب والمسببات، وجعلها وسائل لبني الإنسان للاهتداء من خلالها إلى حكمة الله تعالى والتسليم بتقديره وقضائه.

وقد ذكر الله تعالى بالنص الصريح في كتابه أنه هو الشافي من الأمراض، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(4).

1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

2- قال ابن شهاب: والسام هو الموت.

3- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الحبة السوداء.

4- الشعراء:80.

وأشار جل من قائل إلى الدواء المستفاد من عسل النحل بقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (1)

ويقول ﷺ: "الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ، شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ"(2)

وكان ﷺ يصف العسل دواءً للأمراض، وقد أثبتت الدراسات الطبية أن للعسل فوائد غذائية عالية، وقيمة دوائية عالية كذلك.

وفي الإشارة إلى أن العسل فيه شفاء، تشريع واضح إلى طلب التداوي والبحث من أجل اكتشاف العقاقير الفعالة وتطويرها لمعالجة كل مرض معروف أو مجهول.

وهذا يضع الباحثين والعاملين في مجالات الطب، وتطوير الأدوية، والبحث عن مواصفات ناجعة للعلاج، أمام مسؤوليات كبيرة لمتابعة كل ما يستجد من علوم تتعلق بهذا الباب، وإذا عدنا للحديث عن مرض الساعة، وهو انفلونزا الخنازير، فإننا من خلال الهدي النبوي الشريف، والتوجيه القرآني الكريم، وما فهمه الفقهاء والعلماء واستنبطوه من هذه النصوص الكريمة، واعتبار المحافظة على النفس من أهم مقاصد الشريعة، فإننا نؤكد على ضرورة الأخذ بما يأتي:

أولاً: ضرورة المحافظة على النظافة الفردية، بمزيد من العناية والاهتمام بنظافة البدن، وأدوات الطعام والشراب.

ثانياً الاهتمام بالمحافظة على بيئة نقية ونظيفة في أماكن التجمعات العامة؛ كالمدارس، والمساجد، والحفلات، والاحتفالات.

ثالثاً: العمل على عزل المصابين بفيروس المرض في البيت أو المشفى، وضرورة أخذ الحيطة والحذر من قبل المتعاملين معهم، والقائمين على العناية بهم، حتى لا تنتقل العدوى إلى غيرهم من الأصحاء.

1- النحل: 69.

2- مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن العباس.

رابعاً: تجنب تبادل القبلات والمعانقات بين الرجال فيما بينهم، وكذلك النساء فيما بينهن، احترازاً من العدوى، ومحافظة على الصحة العامة.

خامساً: الامتناع ما أمكن عن السفر إلى البلاد التي ينتشر فيها هذا المرض، وكذلك التدقيق في الحالة الصحية للقادمين إلى البلاد من الخارج، وخاصة الأقطار التي يوجد فيها هذا المرض.

سادساً: قيام الجهات المختصة، الصحية منها على وجه الخصوص، بالبحث عن الأمصال والتطعيمات الواقية من هذا المرض، والبحث عن أنجع الأدوية لعلاجه.

إن الأخذ بكل هذه الاجراءات والاحتياطات، لا ينافي إطلاقاً الإيمان بالقضاء والقدر، كما لا يمنع الأخذ بكل الأسباب التي تحول دون انتشار المرض، كما يحث على الأخذ بأسباب التداوي والعلاج، وهذا ما يتفق مع مقاصد الشريعة في حفظ النفوس، ويوافق هدي النبي ﷺ في الحث على التداوي والتوكل على الله، بعد الأخذ بالأسباب والوسائل التي تحفظ الإنسان وحياته، بعيداً عن الأمراض والأسقام.

وتحقق روح الهدي النبوي الشريف" اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ"[1].كما تدعو إلى منع الضرر بالنفس والإضرار بالآخرين، مصداقا لقوله ﷺ " لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ"[2].

نسأل الله تعالى أن يقي بلادنا المقدسة، وسائر بلاد المسلمين، والعالم أجمعين، من أشرار هذا المرض وأخطاره، إنه بخلقه رؤوف رحيم.

وصلى الله وسلم وبارك، على قدوتنا ورسولنا الأسوة محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان، إلى يوم الدين.

1- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله.

2- موطأ مالك، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق.

ورد في الحديث الصحيح، عن عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ:مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الطَّاعُونِ؟ فَقَالَ أُسَامَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّاعُونُ رِجْسٌ؛ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ"[1]، وفي الآونة الأخيرة كثر الحديث عن مسألة أداء الحج والعمرة في ظلّ انتشار مرض اصطلح على تسميته "بإنفلونزا الخنازير"، وتباينت المواقف من ذلك بين إشاعات تضخم الأمر، ويصل مداها إلى حد الحديث عن إلغاء الحج ومناسك العمرة لهذا الموسم بسببه، وهناك موقف اللامبالاة منه، بحجة أنه مجرد وهم وخيال أو مهول له، وبعضهم لا يبالي به مستنداً إلى إيمانه بالقدر، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ومن النتائج التي أفرزها هذا التباين، ما لحق ببعض الناس من حيرة وبلبلة، فهل سيكون حج لهذا العام أو لا يكون، وإن لم يلغ الحج، فهل ستستثنى فئات عمرية أو مرضية معينة؟ وقد انتاب بعض المسجلين للحج حالة من التردد، هل يؤجلون الحج هذا العام، بإرادتهم الشخصية ؟ أم يمضون في طريقهم إليه رغم المخاطر التي قد تعترضهم أو يتخوفون منها ؟

وإزاء هذه الحيثيات لا بد من الوقوف على التوجيهات والآراء الشرعية ذات الصلة، والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

يراعي الإسلام في أحكامه وتشريعاته قدرة الإنسان وطاقته، فلا يكلفه فوق وسعه، وإذا تعرض المكلف لعلل صحية تحول دون أدائه ما فرض عليه من العبادات، فإن الشرع الحنيف يوجهه إلى بدائل تأخذ هذه العلل بالحسبان، فإذا لم يستطع الوضوء بالماء يلجأ إلى التيمم، ورغم أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الصوم وأحكامه محدودة، فإن الله تعالى نص في تلك الآيات

1- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

المحدودة على قضية العجز عن الصوم بسبب المرض، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [1]

وفي الحج أيضاً تناولت الآيات القرآنية مسألة المرض، وشرعت بسببه الحلول البديلة الميسرة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [2]

من هنا لا عجب أن تراعى الأوضاع الصحية العامة للحجيج عند الخوف من تعرضهم لوباء فتاك، مثل إنفلونزا الخنازير، فأخذ الحذر منه، بالوقاية الطبية مثل الأمصال، والعمل بالنصائح الطبية في هذا المجال، هو أمر طبيعي، لكنه شرعي أيضاً، فدرء المفاسد أولى من جلب المنافع، وصحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان؛ كما ورد في القواعد الفقهية التي أقرها العلماء، والتي يعملون بموجبها في اجتهادهم واستنباطهم، وفي هذه المسألة تتقاطع قضيتان، تتعلق أولاهما بالجانب الصحي، الذي ينظر إليه في ضوء المنطلقات الشرعية التي سلفت الإشارة إلى بعضها، وثانيهما تتعلق بالحج، وهو ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفرض مجمع عليه، والمخاطب به المسلم المكلف، المستطيع بدناً ومالاً وأمناً، ومحرماً بالنسبة للنساء، فالله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [3]، فلا يكلف به من يحول وهنه الصحي عن أدائه، وإذا تحقق تعرض المرء لوباء فتّاك بسبب الحج، فإنه يعذر بالتخلف عن القيام به، أملاً في أن يؤديه لاحقاً، عملاً بالتوجيهات الشرعية التي منها؛ قولهﷺ:"لا ضرر ولا ضرار"[4].

وبالنسبة لمرض إنفلونزا الخنازير فانتشاره بين الحجاج لم يصل درجة القطع والجزم، فهو ما زال في مستوى الظن والتوقع، فيبقى حكم أداء الحج مع وجود هذا الظن يتسم بالمرونة، فمن وجد في نفسه القوة، وأخذ بالاحتياط والوقاية والنصائح الطبية والشرعية خلال أدائه المناسك،

1- البقرة:184.

2- البقرة:196 .

3- آل عمران:97 .

4- سنن ابن ماجه،كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره.

فيمكنه الذهاب لأداء الحج متوكلاً على الله بعد أن أخذ بالأسباب، وإن أصابه مكروه إثر ذلك، فيندرج في إطار الحوادث التي يمكن أن يتعرض لها المرء بسبب الحج وغيره، فكم من سليم الصحة والبنية لقي حتفه بحادث سير أو مرض مفاجئ أو غير ذلك.

أما من وجد في نفسه ضعفاً من مرض، أو كبر سن أو صغره، فيمكن له، بل ينصح بتأجيل أداء الحج في هذا العام المهدد بمثل هذا الوباء، عسى الله أن ييسر له أداء هذه الفريضة في عام قادم خال من هذه المخاوف وأشباهها.

وفي ظل ظنية انتشار هذا المرض بين الحجاج دون القطع بذلك، فإن من الاحتياطات المطلوبة في إطار أخذ الحذر، واتقاء شر هذا الوباء، أن يتجنب الحاج الزحام والالتصاق بالآخرين خلال سيره وطوافه وسعيه وأدائه للشعائر والمناسك، مما يتطلب تقليل عدد الحجاج إلى الحد الذي يمكن معه إتاحة المجال لتجنب الزحام، من هنا ينبغي لمن حج سابقاً أن يترك المجال للذي لم يحج، وبخاصة في مثل هذا الظرف، الذي ضاقت به السعة عن الأعوام الأخرى، بسبب التخوف من انتشار المرض المذكور.

أما من يسر الله له الوصول إلى بيت الله الحرام والمشاعر، فعليه أن يؤدي المناسك على الوجه المشروع، فلا يتخلف أو يتقاعس عن أداء شيء منها تخوفاً من المرض، إلا في إطار ما أذن به الشرع، حيث رخص الله لمن أراد التعجل في الرمي، أن يكتفي بيومين دون الثالث، ولم يضيق الله علينا في كثير من أعمال الحج، فجعل له وقت بداية ونهاية، وبينهما متسع، فيمكن تجنب الزحام خلال هذا المتسع من الوقت، وسمح لمن يعجز عن الرمي بنفسه أن ينيب من يقوم به عنه، وقد شيدت أدوار للطواف والسعي، فيمكن أداؤهما في المكان والزمان المسموحين، مع إبقاء مجال اختيار الأنسب منهما مكاناً وزماناً في ضوء المقرر شرعاً، فما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت:"مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ" [1]

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبيﷺ .

فينبغي للحاج أن يحرص على الأخذ بالأسباب والأساليب الوقائية والعلاجية ذات الصلة بهذا المرض، فذلك يندرج تحت باب الأخذ بالأسباب ثم التوكل، والرسول ﷺ يقول:"... اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ"[1]، والله يأمرنا بالحذر فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾[2]، وورد في الحكمة : درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ويحذرنا الشرع الحنيف من تعمد التعرض للأضرار والمهلكات، فالله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[3]،ويقول ﷺ:" لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ"[4]

ومن الأساليب والأسباب الوقائية التي ينصح بها الأطباء تجنباً من الإصابة بمرض إنفلونزا الخنازير، لبس الكمامات الواقية، وأخذ التطعيمات ـ الأمصال ـ الخاصة بالمرض، مع ضرورة المحافظة على النظافة الشخصية، بغسل الأيدي، وفي العطاس آداب، فعن أبي هريرة:"أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَطَسَ، غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِثَوْبِهِ، وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ"[5]، وهذا يعني استحباب وضع الكمامة.

كما أن على الحاج الذي يشتبه في إصابته بالمرض أن يعتزل المشاعر، ويذهب إلى المستشفى للتأكد، وألا يتسبب في إلحاق الضرر بالآخرين، مع التأكيد على إمكانية اختيار الساعات والأوقات التي يقل فيها الزحام لأداء الطواف حول الكعبة المشرفة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات، وهي المناسك التي يكون فيها الحجاج أكثر عرضة للزحام والتدافع والالتصاق مع بعضهم بعضاً.

والأخذ بالأسباب يتراوح حكمه بين الاستحباب والوجوب، فالإسلام يحرص على الوقاية حرصه على العلاج، وفي هذا السياق يقول الرسول ﷺ :"فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ

1- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ.

2- النساء:71 .

3- البقرة:195.

4- سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره.

5- سنن الترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله، باب ما جاء في خفض الصوت وتخمير الوجه عند العطاس.

الْأَسَدِ"[1]، ونهى الرسول ﷺ أن يقدم الناس على بلدٍ بها الطاعون، أو أن يغادروا ذلك البلد، وذلك خوفًا من انتشار هذا الوباء بين الناس، وقد أخذ بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام17 هـ، حين ظهر الوباء بأرض الشام وكان بها كبار الصحابة، وحين هم بدخولها ذكروا له الحديث فلم يدخلها ورجع إلى المدينة، ومن هنا شرع الإسلام الحجر الصحي بحظر الاختلاط مع المصابين بالأوباء.

أما من شرع بالحج، فسافر له، وتهيأ لأدائه، فينصح بتجاوز مرحلة التردد، مع الحذر من الإشاعات والتهويل والوسوسة الزائدة عن الطبيعي، فبعد التوكل على الله، ينبغي النظر إلى احتساب الأجر على الصبر والتحمل والمعاناة والمرض والوفاة، والله تعالى يبشر الصابرين المحتسبين، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[2]

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لحجاج بيته الحرام، الحج المبرور والسعي المشكور، بسلامة وأمن ويسر، وأن يصرف عنهم كل أذى ومكروه، إنه سبحانه سميع قريب وبالإجابة جدير، سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأسوة، وعلى آله الطيبين، وأهل بيته الطاهرين، وعلى صحابته أجمعين، ومن اقتدى واهتدى بسنتهم إلى يوم الدين.

1- مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

2- البقرة:155.

لقد اهتم الإسلام بالوقت اهتماماً كبيراً، فالوقت هو وعاء الأعمال، وفسحة الحياة لبني الإنسان، فعمر الإنسان هو مجموعة من الأيام ينقص بنقصانها، ومن نقص بعضه نقص كله، ومن قول الحسن البصري رحمه الله: " يا ابن آدم؛ إنما أنت أيام مجموعة، فإن مضى يوم مضى بعضك، وإن مضى بعضك مضى كلك".

ولأهمية الوقت وبيان أثره في الحياة، فقد أقسم الله به في آيات كثيرة من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (1)، وقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (2)،وجل من قائل: ﴿ وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (3).

وفي الحديث الشريف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:" لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ؛ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا وَضَعَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ"(4).

وعن أنس رضي الله عنه قال:" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ"(5).

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى أهمية الوقت في حياة الإنسان، فعلى المسلم أن يحافظ على هذا الوقت، ولا يضيعه في أعمال لا تجلب له الخير والثواب، وتبعده عن طريق الخير، بل يستغله فيما ينفعه في دنياه وآخرته، فالوقت يمضي، ولا يعود مرة أخرى، وهو كما قال الإمام الشافعي رحمه الله:"الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، والنفس إن لم تشغلها في الطاعة شغلتك في المعصية"، فليحرص أولو البصائر والأبصار على أهمية الوقت في حياتنا، وليتذكر الناسون أو

1- العصر: 1-2.
2- الليل: 1-2.
3- الضحى: 1-3.
4- سنن الدارمي ، كتاب المقدمة، باب من كره الشهرة والمعرفة.
5- مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

الغافلون عن أوقاتهم أن الحياة فسحة من الوقت تنتهي بالأجل، وأن الدنيا دار ممر إلى الآخرة، وأن الآخرة خلود في الجنة، أو شقاء في النار، وأن الإنسان محاسب على وقته وأعماله، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [1].

والسؤال قادم لا محالة، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2]، ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [3]، فكل صغيرة وكبيرة سطرت عليك أيها الإنسان في كتاب عند ربي، لا يضل ربي ولا ينسى.

فانتبه أيها الإنسان إلى وقتك الذي هو وعاء عمرك، والعمر هو بضاعتك، ورأس مالك في الحياة، فمن ضيع بضاعته، وخسر رأس ماله، دون أن يحقق الربح، فهو من الخاسرين، فالله سائل كل إنسان عن عمله في هذا العمر، وهذه الحياة.

فالله يقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [4]، ويقول جل شأنه: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [5].

فإذا كان العمر إلى زوال ونقصان، والأيام تطوي الحياة جيلاً بعد جيل، وسؤال الجليل قادم لا محالة، فالعاقل من جعل أيام عمره، لفعل الخيرات، والبعد عن المنكرات.

والخاسر من شغلته الدنيا بالملذات والشهوات، وتمنى على الله الأماني دون أن يسير في طريق النجاة، ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [6]، وهم الذين يقول الله تعالى لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [7].

فهذا العمر الذي نسأل عنه يوم القيامة هو رأس مالنا للتجارة الرابحة أو الخاسرة، وما منحنا الله إياه لنضيعه في الشهوات والملذات، بل لنشغله بالطاعة وفعل الخيرات. فقد خلقنا الله تعالى لغاية كريمة،

1- الزلزلة: 7-8.
2- الحجر:92-93.
3- الإسراء: 13-14.
4- المؤمنون:115.
5- القيامة:36.
6- الزمر: 15.
7- الأحقاف:20.

ومهمة جليلة، فالله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فأكرم بها غاية كريمة، إنها عبادة الله ومعرفته، وما خلقنا لنضيع الأعمار في اللهو والمسلسلات والعبث الذي يبعد الأمة عن رسالتها في هذه الحياة.

وما أجمل ما أوصى به رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، بقوله:" يَا عَبْدَ اللَّهِ، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ"[2]، فالغريب مهما طالت غربته راجع إلى وطنه لا محالة، وعابر السبيل وإن طال سفره سيعود حتماً إلى بلده وأهله، والدنيا مهما طال الأمل فيها، فإن الإنسان مفارقها إلى دار السؤال عن عمره فيما أفناه.

فما أحوجنا إلى هذه الوصية في عصرنا الحاضر، الذي طغى فيه حب الشهوات، وصرف العمر في الملذات ولهو الدنيا رغم قوارع الآيات من كتاب الله وحديث رسوله الأكرم ﷺ، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

فهلا تفكّر كل منا في هدايات الله وآياته، فأقبل بساعات عمره المحدودة على طاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ونظر إلى الدنيا نظرة الزاهد فيها، المفارق لها، ممتثلاً قول ابن عمر، رضي الله عنهما، " إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"[4].

وقد قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله:" يا إبراهيم ! بم حققت الزهد في الدنيا؟ فقال إبراهيم : بثلاثة أشياء، قيل: وما هي؟ قال إبراهيم: رأيت القبر موحشاً وليس معي مؤنساً، ورأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد، ورأيت جبار السماوات والأرض قاضياً وليس معي من يدافع عني".

وحينما حضرت الوفاة هارون الرشيد ـ الذي كان يخاطب السحابة قائلاً:" امطري حيث شئت، فخراجك محمول إلي، إن شاء الله "ـ بكى وتضرع إلى الله بقوله:" يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه "، فيا من عرف أن الدنيا إلى زوال، وأن الله سائلك عن عمرك فيما أفنيته، وعن شبابك

1- الذاريات:56.

2- سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا.

3- الحشر:21.

4- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا.

فيما أبليته، فهل اخترت لنفسك أن تكون شاباً نشأ في طاعة الله، فتفوز بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، كما ورد في الحديث الشريف:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ"[1].

أم تريد أن تكون شاباً أطلق لنفسه عنان الهوى، فلحق الشهوات، وسلك طريق الملذات، فضاع عمره، وأبلى شبابه في تجارة خاسرة، عما قريب سيسأل عنها بين يدي الله، وسيحار في الجواب لتشهد عليه جوارحه بما اقترفه، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [2].

كما سنسأل جميعاً عن مالنا كيف اكتسبناه وفيما أنفقناه، هل جاء من طريق الحلال، أو من طريق الحرام؟ وهل أدينا حق الله وحق العباد فيه ؟ أو منعنا الزكاة، وكنزنا المال، واستثمرناه في طرق غير مشروعة طمعاً في الثروة واستزادة في المال.

وأما العلم فمسؤوليته كبيرة، ومن واجبات طلابه أن يسخروه في مصلحة الأمة، ونفع أفرادها، وأن يكون خالصاً لله تعالى، حتى ينتفع به الناس، كما على أصحاب العلم أن يصونوا العلم عن الابتذال، وذل السؤال، ويسخروه لمنفعة الأمة وإرشادها إلى طريق الرشاد.

فعلى كل منا أن يعد العدة ليوم الحساب، يوم نسأل عن العمر فيما أفنيناه، وعن الشباب فيما أبليناه، وعن المال كيف اكتسبناه ؟ وفيما أنفقناه؟ وعن العلم ماذا عملنا به ؟.

نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أعمارنا وأعمالنا، وأن يجعل أعمالنا صالحة متقبلة، وأن يختم لنا بالصالحات، ويتوفانا على الإيمان الكامل، وأن يلهمنا حجتنا يوم السؤال، ويجنبنا سوء الأخلاق والأعمال، إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش.

2- النور:24.

فهرس الكتاب

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
	الفصل الأول / الإيمان وفتنة الدنيا	
1	يبايع أصحابه على الإيمان والطاعة	5
2	يبين دلائل الإيمان	9
3	يبين لنا طريق الفوز بالجنة	13
4	يحذر من فتن الدنيا	17
5	ينهى عن تفضيله على الأنبياء	21
	الفصل الثاني / ذكرى المولد والهجرة	
6	في ذكرى مولده الشريف (أ)	26
7	في ذكرى مولده الشريف (ب)	31
8	يأخذ بالأسباب في هجرته	35
	الفصل الثالث / القدس والأقصى والأسرى	
9	يبين أهمية بيت المقدس	40
10	يربط بين المسجد الأقصى المبارك والمسجد الحرام	43
11	يحثنا على السكن في القدس	47
12	يحث على السكن في القدس	50
13	يُرشد إلى سبل ربانية في مواجهة محنة المسجد الأقصى المبارك	54
14	يرسخ الإصرار على حق العودة	59
15	يحث على إحياء الأرض وزراعتها	63
16	يوصي بالأسرى خيراً	68

الفصل الرابع / الصيام والحج والصدقات		
17	يعطي ولا يخشى من ذي العرش إقلالاً	72
18	هديه في صيام شعبان	75
19	يحث على تحري هلال رمضان	78
20	يستقبل رمضان بالهمة والاجتهاد	81
21	يبشرنا بفضل الصيام وجزائه	85
22	يحثنا على إحياء ليلة القدر	89
23	هديه في يوم عيد الفطر	93
24	يُرغّب في صيام الستة من شوال	97
25	يحدد فريضة الحج بمرة في العمر	102
26	يبين ثواب الحج	105
27	في مؤتمر الحج الأكبر	109
28	هديه في الأضحية	113
29	هديه في يوم الأضحى	117
الفصل الخامس / الأسرة والمجتمع		
30	يضع أسس المجتمع الإسلامي	122
31	يكرم العامل	127
32	يحث على بر الوالدين	131
33	يحذر من عقوق الوالدين	135
34	يحث على الزواج	141
35	يرشد لضبط قضية التعارف قبل الزواج	145
36	يحذر المرأة من طلب الطلاق	151
37	يدعو إلى نبذ العصبية	155

38	هديه في العفو	158
39	هديه في تراحم المسلمين	162
40	يخبرنا عن منزلة كافل اليتيم	166
41	يحرم الاعتداء على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم	169
42	يبين حرمة دم المسلم	173
	الفصل السادس / الأخلاق والقيم	
43	رابط الجأش (الحلقة الأولى)	177
44	رابط الجأش (الحلقة الثانية)	182
45	ينهى عن الكذب	188
46	يشيد بحسن الخلق	191
47	يوصي بالتفاؤل وينهى عن القنوط	194
	الفصل السابع / التداوي وأهمية الوقت	
48	يحث على التداوي	201
49	يرسي مبدأ العلاج الوقائي	205
50	يبين أهمية الوقت	209